الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

مديرية ما بعد التدرج والبحث التكويني

جامعة الجزائر 2

رمز المشروع : O06120140002

عنوان المشروع : دور الإمبراطوريات والممالك الإفريقية في بناء الصرح الحضاري العالمي.

رئيس المشروع : الأستاذ الدكتور منصف بكاي .

- **التقرير النهائي، Bilan final**

فرقة البحث:

- **أ.د منصف بكاي..... رئيسا.**
- **د. بوسليماني عبد الرحمان.... عضوا.**
- **أ. بتقة ابراهيم..... عضوا.**
- **دة. مصطفاوي سعاد..... عضوة.**

1 – التراث الإفريقي والعولمة

تمهيد :

الثقافة جزء لا يتجزأ من هوية أي بلد أو قارة خاصة إذا كان الأمر يتعلق بقارة تسمى إفريقيا أو كما يحلو للبعض تسميتها بالقارة السمراء.

إن المتتبع للدراسات التي تناولت الشؤون الإفريقية يلاحظ بأن هناك إجحاف في حق ثقافة شعوبها خاصة تراثها الذي تعرض لشتى أنواع التهميش والتخريب والنهب والطمس . وكل ما تناولته هذه الدراسات والتي للأسف الشديد لم يتناولها أبناؤها الحقيقيون هي عبارة عن شذرات من تاريخ عميق وطويل تعرض للتشويه من طرف الدول الاستعمارية التي عملت على محو تاريخ ونضال رجالات المقاومة الإفريقية عبر مختلف الحقب الزمنية . وعليه ، فإن الوقت قد حان لكي يكتب بأقلام أبنائها الأوفياء حفاظا على تراثها وهويتها .

شهد نهاية القرن العشرين ثورة في عالم المكتبات والمحفوظات ، ومن بين ميكانزمات هذه الثورة ، ظهور الكمبيوتر مما جعل البعض يعتقد أن ظهوره قد يجعل المكتبات تستغني عن الورق ، بل أن موت الكتاب قد يصبح أمرا محتوما . واليوم تبين لنا أن هذا الجهاز ما هو إلا صديق يقدم خدمات جليلة في كل المجالات . فلم يقتصر الأمر على أن الكمبيوتر لم يؤد إلى فناء الكتاب ، بل أنه على النقيض من ذلك يتيح للجميع فرص الإنتفاع بما تحتوي عليه مكتبات العالم ومحفوظاته من وثائق ومؤلفات ، بينما أصبح هو بحد ذاته موضوعا لآلاف الكتب والمجلات .

وتلعب التكنولوجيات السمعية البصرية دورها هي الأخرى ، ولاسيما مسجل الكاسيت والفيديو اللذين يؤديا دورا حيويا في المحافظة على التراث المنقول للكثير من ثقافات العالم لاسيما الثقافة الإفريقية التي بقي جزء كبير منها في طي النسيان .

والجدير بالذكر أن وراء هذه الجهزة ذلك الجهد الكبير الذي يبذله في التفكير والتصميم علماء أوتوا الذكاء والعبقرية . ومن هذا المنطلق ، نتساءل عن أهمية المحفوظات بالنسبة لإفريقيا بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة للحفاظ على ثقافتها الثرية التي ساهمت كثيرا في إثراء الثقافة العالمية ولاسيما الحضارة العربية الإسلامية .

ولإعطاء الموضوع حقه ، تتبادر إلى الذهن مجموعة من التساؤلات

ماهي الأسباب التي جعلت القارة السمراء تتخلف في مجال المحافظة على تراثها الثري ؟ وما هي مكانة إفريقيا في هذا المجال في ظل العولمة ؟ هل هنالك حلول ممكنة للمحافظة على تراث القارة لتحدي الألفية الثالثة ومواكبة العولمة ؟

1- أسباب ضعف تقاليد الحفظ في إفريقيا .

تعاني إفريقيا اليوم من ضعف في مجال نظم الحفظ في ماضيها وما ترتب من نتائج خطيرة انعكست على تاريخ شعوبها . وقد ظلت إفريقيا متأخرة في هذا المجال مما أدى إلى عواقب وخيمة أثرت على مكانة إفريقيا في الساحة الدولية .

ويمكن تعريف تقاليد الحفظ ببساطة أنها حرص ثقافي على حفظ السجلات تترتب عليه القدرة على الإمساك بزمام الماضي عبر الوثائق المحفوظة . وعليه ، يمكننا القول أن تأسيس دور المحفوظات الوطنية غير كاف بل يعني نزوعا ثقافيا إلى تسجيل تواريخ الميلاد ، عقود الزواج ، وجمع الخرائط وحفظ الرسائل المتبادلة بين الأحياء ، إضافة إلى العقود وما شابه ذلك . إن الإعتناء بإنشاء المتاحف ودور المحفوظات يهدف أساسا إلى إحياء التاريخ الإجتماعي الذي نحن بحاجة ماسة إليه في ميدان البحث مع الإستعانة بالوثائق على اختلافها من صور وبطاقات بريدية وخطابات ورسائل وأقوال يدلى بها شفهيا ، إضافة إلى أن مخابرالترميم ومخابر التصوير هي من الوسائل الضرورية لتدعيم البحث العلمي .

ونظرا لضعف تقاليد الحفظ في إفريقيا ضعف تراثها وضمرت لغاتها وتراثها الفلسفي، وقد أفضى ذلك إلى نتائج مروعة عانت منها شعوب القارة السمراء عبر قرون .

وإذا تسآلنا عن الأسباب التي من أجلها كانت تقاليد الحفظ ضعيفة في إفريقيا وجدنا أولها يتجلى في أن معظم الثقافات الإفريقية الأصلية تأبى أن ترى الماضي على أنه زمن ولى أو الحاضر على أنه زمن عابر . إن أسلافنا مازالوا يقيمون بيننا وسنغدوا بدورنا أسلافا . وإذا لم يكن الحاضر زمنا عابرا ، فما هي الجدوى إذن من تجشم العناء لتسجيله وحفظه ؟

ومن أسباب ضعف تقاليد الحفظ في الثقافات الإفريقية هو ضعف التراث التقويمي (بما في ذلك التوقيت بالساعة) . فكثير من الشخصيات التاريخية والزعماء في إفريقيا مثلا ما كانوا يعرفون متى ولدوا بالضبط (اليوم والشهر مثلا) ، ومن هذه الشخصيات نذكر

أبو شيري بن سليم الحرثي الذي قاد انتفاضة الساحل التنزاني ضد التواجد الإمبريالي الألماني في الفترة الممتدة من سنة 1888 إلى غاية سنة 1890 أو زعيم ثورة الواهيهي مكواوا الذي تزعم الثورة ضد الإمبريالية الألمانية من سنة 1891 إلى غاية 1898 بتنزانيا أو مقاومة ساموري توري للإمبريالية الفرنسية بساحل العاج في نهاية القرن التاسع عشر .

وفي الوقت الذي يوجد فيه تقويم جريجوري **(1)** وتقويم إسلامي **(2)** وتقويم هندي وتقويم صيني ، لا يوجد تقويم إفريقي عدا التقويم المسيحي الأرتذكسي المعدل في إثيوبيا .

ومن أسباب ضعف تقاليد الحفظ أيضا، هو ضعف الكلمة المكتوبة ، ذلك أن الكثير من المجتمعات الإفريقية لم تبدأ تعرف الكلمة المكتوبة إلا أثناء القرن الماضي أي إبان التواجد الإمبريالي الأوربي في إفريقيا . ولكن ما لمقصود بالوثيقة ؟ يقصد بها على وجه الخصوص الكلمة المكتوبة ، إضافة إلى رسوم وصور ونقوش على الصخور . بيد أن أقدم أشكال التوثيق على الإطلاق هو ذلك المتعلق بالذاكرة الفطرية للإنسان.

والجدير بالذكر أن إفريقيا تأثرت بمشكلة التوثيق بطريقتين أساسيتين ، تتمثل أولهما في نقص فادح في مجال الأثار المكتوبة ، وثانيهما في وجود فائض في مجال الذاكرة الفطرية للإنسان . ويمتد النقص الفادح في الوثائق أيضا إلى مجال الآثار المكتوبة . فإذا أردنا إجراء مقارنة بين ثقافات إفريقيا وثقافات العالم الكبرى ، يتضح لنا جليا أن ما لدى للأولى من سجلات مدونة إنما هو دون متوسط ما لدى غيرها . **(3)** وكان من شأن هذا الافتقار إلى المادة المكتوبة أن أدى إلى افتراض ظل قائما زمنا طويلا مؤداه أن افريقيا قارة بلا تاريخ . وعليه ، تتبادر إلى الذهن عدة تساؤلات في هذا السياق . هل هذه الصورة الثقافية السلبية هي التي حكمت على الأفارقة أن يعيشوا حياة هامشية زجت بهم إلى نير العبودية ؟ هل انبثقت فكرة الاستعمار من مبدأ التفوق العنصري للشعوب على حساب شعوب أخرى ؟ هل كان الافتقار للوثائق سببا في جعل القارة السمراء متخلفة ؟ لماذا وقع اختيار الأوربيين على الأفارقة ليتخذوا منهم عبيدا ؟ لماذا لم يستعبد العرب أو سكان آسيا ؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات ، يتوجب علينا تصفح تاريخ إفريقيا لتسليط الضوء على بعض الحقائق التاريخية التي ساهمت في إضعاف قدرات الأفارقة وزعزعة كيانهم ومحاولة طمس ثقافتهم الثرية ، إضافة إلى أسباب أخرى نذكر منها أن عمق القرة السمراء ظل لزمن طويل مجهولا إلى حد

كبير ، وأن التضاريس والمناخ هما عاملان حالا دون تمكن الأوربيين من استكشاف إفريقيا كلية . وعليه ، يمكننا القول أن تاريخ إفريقيا يكاد يكون مجهولا إلى حد كبير خصوصا إذا ما علمنا أننا نعتمد أساسا في بحوثنا على مصادر أوربية والشيئ القليل من المصادر الإفريقية ، وأن الكثير من الوثائق لم تدرس أو لم تحظ بعناية وافية في مجال البحث مما جعل إفريقيا حاليا تحتاج إلى مؤرخين وباحثين من أجل إنقاذ تراثها ومصادرها التي يجب أن تستعمل في مجال الدراسة إذا كانت لا تريد أن يبقى ماضيها مجهولا أو محتكرا على الباحثين الأوربيين .

ومما يجدر ذكره أن الكثير من المؤرخين الأوربيين ساهموا في بلورة فكرة أن إفريقيا السوداء ليس لها تاريخ ، والكثير من هؤلاء المؤرخين كانوا يدرسون في أرقى الجامعات كأكسفورد وكيمبريج وباريس . وكان أساتذة التاريخ الأوربيين المتخصصين في مجال تاريخ الحقب الإستعمارية يرون عدم جدوى دراسة ماضي إفريقيا ، وكان على رأسهم ايجرتون ، أستاذ التاريخ بجامعة أكسفورد الذي كان من بين أولائك المؤرخين الذين يرون مجيئ الأوربيين إلى إفريقيا كان بهدف نشر الحضارة وحفظ الأمن في مجتمعات غير متجانسة ومتأخرة إلى أبعد الحدود حتى أنهم نعتوا القبائل الإفريقية بالقبائل المتوحشة **(4)** ، في حين نجد أن بعض المؤرخين بنفس الجامعة يجمعون على أن تاريخ إفريقيا بدأ مع التواجد الإمبريالي أي منذ منتصف القرن 19 م .

ومن خلال ما تقدم ، يمكن القول أن المؤرخين الأوربيين لم يعطوا له العناية الكافية رغم أنه جزء لا يتجزأ من تاريخ الإنسانية ، ويتجلى ذلك من خلال عدم إدراجه ضمن البرامج الدراسية الجامعية وتركه يتلاشى يوم بعد يوم حتى بقي عبارة عن شذرات وهوامش لا تشفي غليل الباحثين في الشؤون الإفريقية . وبقي الحال على وضعه إلى غاية نتصف القرن العشرين عندما بادرت جامعة لندن إلى إدراج مقياس تاريخ إفريقيا ضمن البرنامج الجامعي **.(5)** كما تم فتح مركز للدراسات الإفريقية بجامع نورثيسترن بالولايات المتحدة الأمريكية .

وعادة ما كان تاريخ إفريقيا مرتبطا بتاريخ القوى الاستعمارية ومكتوبا بطريقة ذاتية ، فآن الأوان أن يتكفل الأفارقة بكتابة تاريخهم لأن أهل مكة أدرى بشعابها . **(6)** وكما هو

معلوم أيضا ، فالكثير من المناطق الإفريقية لاسيما وسطها وشرقها ظلت مجهولة إلى غاية منتصف القرن التاسع عشرعندما كتب بعض المغامرين والتجار ورجال الدين المسيحيين عن ممالك البحيرات الكبرى . فمملكة بورندي ، وصفت لأول مرة سنة 1858 عن طريق المغامر رتشارد بورتن ، أما مملكة بوغندا ، فكتب عنها المغامر جون سبيك لأول مرة سنة 1862 . **(7)** وعليه ، يمكننا القول أن مصادر كتابات المؤرخين الأوربيين تعلق بكتابات هؤلاء المغامرين وأرشيف البعثات التبشيرية المسيحية سواء أكانت بروتستنتية أو كاثوليكية ، إضافة إلى أرشيف الدول الإستعمارية . وعلى هذا الأساس ، كتب الكثير من المؤرخين الأوربيين تاريخ إفريقيا حسب ميولهم ومبتعدين كل البعد عن الموضوعية .

إن التواجد الإمبريالي بإفريقيا كان له أثره السيئ على واقع القارة السمراء ، وأن ما تميز به من هيمنة خانقة واستغلال فاحش ، قد يجعلنا نجزم أنه تسبب في إفقار الأهالي الأفارقة ، كما أنه أحدث انقلابا داخل المجتمع الإفريقي بما أقدم عليه من سن لقوانين إستثنائية وتطبيق لسياسة الأرض المحروقة لمواجهة كل أشكال المعارضة بم فيها الإنتفاضات الإفريقية تارة وفرق تسد تارة أخرى قصد استمالة القبائل وتحويلهم إلى أداة طيعة تخدم مصالحها وتقف حائلا دون تطور الحركة الوطنية وتوحيدها .

وكانت الإمبريالية تجد صيغا لتبرير تواجدها بالقارة السمراء باستحداث مصطلحات تخدمها كالحماية ، الإنتداب والوصاية . وكان الهدف من وراء ذلك كله إضعاف القارة السمراء وتدمير مقوماتها السوسيو- اقتصادية .

ومما هو جدير بالذكر أن الإمبريالية بنت استراتجيتها على طمس الثقافة الإفريقية ، بل العمل على القضاء عليها . وعليه ، سعت جاهدة إلى تدمير أشكال التواصل الذي ينمو من خلالها الضمير الجماعي ، كما حاولت أن تجعل من سكان إفريقيا حشودا بشرية لا روح لها ولا تاريخ . وعلى هذا الأساس ، كان الإمبرياليون وعلى رأسهم بعض المنظرين يرون أنه غلب على ثقافة الأفارقة سوى الذهنية البدائية التي لا تستطيع أن ترقى إلى مستوى التفكير المنطقي . كما حاول الإمبرياليون فرض أسلوب معين من السلوكات خصوصا لإذا ما علمنا أن الهيمنة الثقافية هي أشد مكرا وخداعا ولا يمكن إلا أن تكون أشد ضررا وأكثر فسادا وأعمق أثرا من السيطرة العسكرية .

وفي هذا السياق ، سعت الإمبريالية أيضا ، إلى خلق نخبة متشبعة بالفكر الإمبريالي ، نخبة تمجد الحضارة الأوربية وتحتقر الثقافة الإفريقية .

ومن خلال ما تقدم ، ولتسليط الضوء على بعض الحقائق التاريخية ، فالمتصفح لمختلف الوثائق الخاصة بالمستعمرات لاسيما تلك المتعلقة بالتقارير الصادرة عن الحكام العامين ، يلاحظ أن الإستعمار عمد إلى تجهيل الشعوب التي كانت خاضعة له بتبني سياسات مقصودة قصد تفقير وتجهيل الشعوب الإفريقية . فالمتصفح أيضا لمختلف ميزانيات المستعمرات ، يلاحظ تخصيص ما قيمته 1 % من النفقات لقطاع التعليم وأكثر من 20 % لقطاعات أخرى .

وبناء على هذه المعطيات ، نستنتج أن تخصيص موارد ضئيلة جدا لقطاع التعليم هو دليل قاطع على نية الإمبرياليين هي تجهيل الأفارقة . وعليه ، يمكننا القول أن التعليم في إفريقيا لم يحظ بدعم السلطات الإستعمارية . ولتمرير سياسة تجهيل الأفارقة ، عمد الإمبرياليون إلى ترك هذه المهمة للبعثات التبشيرية المسيحية التي غلب على منظومتها التربوية التعليم الديني قصد الحد من انتشار الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا ووضع حد لنشاط التجار العرب وسلاطين عمان في شرق إفريقيا الذين تمكنوا من نشر تلك الثقافة إلى المناطق النائية بهذا الجزء من القارة السمراء .

وفي هذا السياق ، عمدت البعثات التبشيرية المسيحية **(8)** التي نذكر من بينها جمعية بعثة لندن والأباء البندكتيين السويسريين والأباء البيض **(9)** الذين أرسلهم الكاردينال لافيجري سنة 1878 إلى منطقة البحيرات الكبرى لنشر الديانة المسيحية وذلك عن طريق برامجها التعليمية والقضاء تدريجيا على الثقافة السواحلية المنتشرة هنالك بل والعمل على اضعاف اللغة السواحلية وكثير من اللغات الإفريقية بإلغائها من المدارس التي كانت تشرف عليها البعثات التبشيرية المسيحية .

والجدير بالذكر أن القوى الإستعمارية قد ساهمت إلى حد بعيد في تخلف الأفارقة الذين كانوا استنادا إلى بعض المصادر أقل تخلفا قبل التواجد الإمبريالي . وعليه ، فقد الأهالي الأفارقة مهاراتهم الزراعية والصناعية التقليدية لأن إدخال وسائل الإنتاج العصرية التي انبثقت عن الإنقلاب الصناعي قد جعل الأفارقة يتخلون عن حرفهم ويهتمون بزراعة

المحاصيل النقدية ويبحثون عن العمل للتمكن من دفع الضرائب ، الأمر الذي أثر على تركيبتهم الإجتماعية .

وفي هذا السياق ، يذكر الرئيس التنزاني الأسبق جوليوس نيريري في مؤلفاته أن الأفارقة ظلوا متخلفين ومستغلين أبشع استغلال ، كما أنهم لم يشاركوا في حكم بلادهم إبان التواجد الإستعماري . **(10)** فالتنزانيون لم يستشاروا في المسائل الشائكة التي كانت لها انعكاسات خطيرة على تاريخ منطقة البحيرات لأن سلخ مقاطعتي رواندا وبورندي عن تنزانيا بعد الحرب الإمبريالية الأولى ومنحهما لبلجيكا في إطار الإنتداب كمكافأة لها على مساعدتها لبريطانيا إبان تلك الحرب قد تسبب في حرب أهلية بين قبيلتي التوتسي والهوتو ، والتي راح ضحيتها مئات الآلاف من الأبرياء ، كما أصبح ملفها بمثابة الشغل الشاغل لمنظمتي الأمم المتحدة والاتحاد الإفريقي .

وبناء على ما تقدم ، يمكن القول أن النظام الإستعماري حمل في طياته بذور انفجار الوضع في منطقة البحيرات الكبرى الذي شمل أيضا دولة الكونغو الديمقراطية (الزائير سابقا) ناهيك عن المشاكل السوسيو – اقتصادية التي مازلت هذه المنطقة تتخبط فيها بشكل خاص وإفريقيا بشكل عام .

وفي الأخير تجدرالإشارة إلى أن التراث الإفريقي قد تأثر بالسيطرة الإستعمارية تاثيرا سلبيا عندما وضع الأوربيون أيديهم على المكتبات العامة والخاصة وسرقة الأرشيف والتحف الفنية التي زينت بها رفوف المتاحف الأوربية . وقام بهذا العمل الجنود والجواسيس والبعثات التبشيرية المسيحية التي عن طريقها تم تحويل التراث الثقافي المادي إلى المتاحف الأوربية ، الأثرياء والنبلاء والضباط الذين أوكلت إليهم مهام الغزو . كما تعمد الإستعمار حرق المكتبات لاسيما مكتبة جامعة الجزائرالتي كانت تشمل على كنوز لا تعوض مثل الكتب والوثائق الخاصة بتاريخ وحضارات إفريقيا .

2 – الحلول الممكنة للمحافظة على تراث القارة ومواكبة العولمة :

إن ما يميز علمنا اليوم أو الألفية الثالثة هو بدون شك ظهور ما اتفق على تسميته **بالعولمة** التي تعد مشروعا حضاريا يهدف إلى فرض النموذج الغربي على العالم قصد الهيمنة العالمية وتفوق الحضارة الغربية على كل الحضارات الأخرى . ويقصد بالعولمة أيضا ، تفييد معنى الشيئ وتوسيع دائرته لتشمل الكل أي إكتساب الشيئ طابع العالمية . وللعولمة جانبين ، أحدهما إيجابي والآخر سلبي . فبالنسبة للجانب الإيجابي ، يمكن القول أنها ظاهرة حضارية انبثقت كنتيجة لدخول العالم في عصرثورة تكنولوجيات الإتصال والمعلومات التي أدت إلى تقلص العالم ليصبح قرية صغيرة بفضل سرعة المواصلات وتدفق المعلومات وسرعة الحصول عليها عن طريق الإنترنات والبريد الإلكتروني . وعليه ، تسعى العولمة إلى تسخير العلم في خدمة الإنسان والحضارة . أما الجانب السلبي للعولمة ، فيتجلى في كونها تهدف إلى السيطرة أو الهيمنة والتحكم بالسياسة والإقتصاد ، وتمتد لتطال ثقافات الشعوب والهوية الوطنية والسعي لمحو الخصوصيات الثقافية للشعوب .

وللمحافظة على التراث الإفريقي ، وتدارك ما فات ، يتوجب على القارة السمراء تحديث وسائل الحفظ والتسجيل ، وذلك بضرورة إدخال الوسائل التكنولوجية الحديثة المستعملة في مثل هذه العمليات ذات الأهمية البالغة في حياة الشعوب للحفاظ على الذاكرة رغم تعاقب السنين نذكر منها ما يلي :

1- تسجيل عدة نسخ للمحفوظات عبر الإعلام الآلي مع ضرورة ربطها بشبكة الأنتيرنات قصد تمكين الباحثين والمختصين من الاطلاع على هذا الأرشيف .

2 – تعيين مختصين أكفاء ذوي الاطلاع الواسع على الثقافة الإفريقية للقيام بمهمة نقل النصوص من الكتب القديمة إلى أجهزة الكومبيوتر.

3 – الإسراع في نقل التراث والأحداث التاريخية من الأشخاص الذين عايشوها لكي يتسنى نقلها بكل صدق وأمانة عبر الأجهزة السمعية البصرية .

وفي هذا السياق ، تجدر الإشارة إلى إقدام بعض الدول الإفريقية على الإهتمام بهذا الموضوع لاسيما الحكومة الزمبابوية التي أنشأت مركزا للحفظ عبارة عن تسجيل أشرطة فيديو تحتوي على أهم الوقائع التاريخية الشفهية .

وعلى هذا الأساس ، يتوجب على المؤرخين الأفارقة مقابلة حاملي هذه المعلومات عن طريق الدعاية للبرنامج بواسطة وسائل الإعلام المرئية والبصرية ، ثم يتولى هؤلاء المؤرخون تدوين هذه المقابلات وتحريرها قبل تصنيفها . وبهذه الوسائل تستطيع إفريقيا المحافظة على تاريخها وتراثها ، وتجمع مادة مفيدة ابتداء من سلالة الأنساب وأهم أحداث التاريخ الإجتماعي بما في ذلك العادات والتقاليد والأغاني والموسيقى وما شابه ذلك .

4 – لا توجد في إفريقيا آثار على مستوى أوربا أو آسيا أين نجد أبنية أثرية من حجارة ضخمة إلا لو استثنينا شمال إفريقيا أو زمبابوي أو مدن شرق إفريقيا التي شيدت على النمط العربي الأسلامي والواقعة على الشريط الساحلي المطل على المحيط الهندي .

وعليه ، نجد أن اغلب البنايات الأثرية تتكون من الغضار والخشب ، مواد لا ترحمها الطبيعة ولكن آثارها مازلت باقية إلى يومنا هذا رغم تعاقب السنين والحملات الإستنزافية التي تعرضت لها إفريقيا إبان التواجد الإستعماري بها . وعلى هذا الأساس ، أضحت القارة السمراء مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى بتظافر الجهود لإنشاء هيئة تطالب الدول الأوربية باسترجاع كنوز إفريقيا التي هي جزء من تاريخها وهويتها .

بيد أن ما ينبغي الإشارة إليه هنا ، هو أن هذه الكنوز مازلت تزين بها رفوف المتاحف الأوربية . كما يتوجب على المختصين في الشؤون الإفريقية إبراز معالم الحضارة الإفريقية التي هي ضاربة في أعماق التاريخ عبر مختلف حقبه الزمنية . فالكثير من الإكتشافات الأثرية قد أثبتت أن إفريقيا كانت موطننا لكثير من الحضارات . وعليه ، نجد أن كل من العصرالباليوليتي والعصر النيوليتي يؤكدان ما تركه الإنسان الإفريقي من آثار مازلت قائمة إلى يومنا هذا نذكر منها النقوش الصخرية والرسومات التي ترمز إلى بعض الحيوانات وحرفة الصيد . فكل هذه المظاهر تعبر بصدق عن التقنيات المستعملة في تلك العصور.

5 – يتوجب على المختصين في الشؤون الإفريقية جمع الوثائق المتواجدة في مختلف دور المحفوظات في العلوم التاريخية والإدارية والإقتصادية والثقافية ، ثم تثمين تلك المعلومات وترتيبها ، إضافة إلى معالجة مسألة الرشيف الذي يضم نسخة واحدة بتطبيق تقنيات متقدمة كاستخدام المايكروفيلم . كما يتوجب مسايرة الأنشطة المتعلقة بعلم التوثيق في العالم ، ومن

ثمة تقديم المواد الأرشيفية الهامة للباحثين الفارقة لتصنيفها وتقويمها حتى يتمكنوا من كتابة تاريخ القارة السمراء بكل موضوعية ومبتعدين عن الذاتية .

6 – ضرورة التوسع في معرفة أصول القبائل الإفريقية عن طريق القيام بدراسات معمقة خصوصا إذا ما علمنا أن جل الدراسات التي قام بها المختصون الأوربيون ما هي إلا فرضيات . وعليه ، شهدت إفريقيا إلى غاية التواجد الإستعماري الأوربي حركة كثيفة للقبائل الإفريقية . فهجرة قبائل البانتو**(11)** داخل القارة تواصلت لفترة تزيد عن ألف سنة ، إضافة إلى أن القبائل الإفريقية قد تأثرت بالشمال عن طريق اتصالها بشمال إفريقيا ، أما في الشرق ، فكانت العلاقات وطيدة مع العالم الأسيوي بما في ذلك العالم العربي الإسلامي الذي كان تأثيره بارزا على الشريط الساحلي المطل على المحيط الهندي . **(12)**

وتشير بعض المصادر إلى وجود حضارة قديمة في الشريط الساحلي لشرق إفريقيا بحيث كانت تربط الأهالي الأفارقة علاقات تجارية مع الجزيرة العربية والهند قبل الميلاد . وتتطرق نفس المصادر إلى هجرات من جنوب الجزيرة العربية إلى جنوب إفريقيا للعمل في مناجم الذهب وربما ساهموا في بناء معالم وآثار مازلت قائمة إلى يومنا هذا نذكر منها آثار زمبابوي وبعض المدن الساحلية في شرق إفريقيا كممباسا ودار السلام .

7 – بما أننا نتناول موضوع حساس له علاقة وطيدة بضرورة المحافظة على التراث الثقافي الإفريقي لمواكبة العولمة ، يتوجب على المختصين في الشؤون الإفريقية التعامل مع علوم أخرى كعلم الآثار الذي يبحث في مخلفات الماضي وبقاياه المادية من عمران وأدوات وآلات أي معرفة الثقافة الإنسانية ، إضافة إلى علم النقوش أو الكتابات القديمة الذي يهدف إلى حل رموز الخطوط القديمة بدراسة وترجمة كل ما هو مكتوب أو مرسوم أو منقوش . أما علم الأنثروبولوجيا ، فيهتم بثقافة الإنسان البدائي والسلالات البشرية وتوزعها ، كما هو علم يهتم أيضا ، بخصائص الجماعات البشرية . أما علم اللسانيات ، فيساعدنا في التعرف على ماضي الشعوب الذي لا تتوفر فيه الشواهد المكتوبة من خلال الإهتمام بظاهرة اللغة أو اللهجة المتصلة بالنشاط الإنساني . وعليه ، يمكن للباحثين في الشؤون الإفريقية الإستعانة بهذا العلم لمعرفة أصول بعض اللغات واللهجات لاسيما تلك المتعلقة بقبائل البانتو في شرق

إفريقيا أو قبائل أكان ، دان ، السينوفو وبيتي والبامبارا والماندنغ في غرب إفريقيا أو قبائل الشونا ، نديبيلي ، كزوسا والزولو في زمبابوي وجنوب إفريقيا . هذا بالإضافة إلى علوم أخرى كالجغرافيا وعلم الإجتماع والديموغرافيا التي تعد من العلوم الأساسية في مثل هذه المسائل .

8- الإعتماد على بعض المصادر العربية التي سدت الكثير من الثغرات وساعدت على كشف غوامض تاريخ إفريقيا لاسيما مروج الذهب لصاحبه **المسعودي (13)** ، ذلك المصدر النفيس الذي يساعد المختصين في الشؤون الإفريقية على جمع مادة مفيدة حول تراث القارة السمراء . أما **البكري** ، فيساعدنا على معرفة الكثير من المعلومات التاريخية الوافية حول إمبراطورية غانا . كما يمكننا الإستعانة ببعض العلماء الذين تركوا بصماتهم في ميدان البحث نذكر منهم الشيخ القاضي **محمد بن محمود** كعت الذي ولد سنة 1468 بمدينة تمبوكتو وعاصر **الأسقيا محمد الكبير الطوري** وألف كتابا ذي قيمة علمية كبيرة بعنوان " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتقريب أنساب العبيد من الأحرار " ويعود تاريخ هذا المصدرإلى القرن 16 م ، والذي نعتبره مصدرا نفيسا للباحثين في الشؤون الإفريقية لانه خير شاهد لهذا العصر. **(14)**

ومن فطاحلة ذلك العصر نذكر **الشيخ عبدالرحمان بن عبد الله السعدي** (1596- 1655) الذي ألف كتابا يحمل عنوان " تاريخ السودان " سنة 1653 م ، ويعد هذا المصدر من أهم المصادر التي تناولت تاريخ غرب إفريقيا بحيث يسلط الأضواء على الممالك الإسلامية في السودان ونبذة عن أخبارها ونشأة مدنها الراقية . كما تتبع تاريخ سنغاي وقبائل مالي والطوارق وشعب الفولاني وأرخ للسلاطين من أسرة الأسقيا . ولم يكتف السعدي بالتأليف فحسب بل ترجم لحوالي مائتين عالم سوداني وعلى رأسهم شيخه أحمد بابا . **(15)**

ويمكننا ذكر أيضا الرحالتين **الإدريسي** و **إبن بطوطة** اللذين زارا إفريقيا ولاسيما شرقها ، مالي ، تمبوكتو وغاو . وقد اعطانا الإدريسي وصفا كاملا عن ميناء مومباسا الكينية في القرن 12 م ، إضافة إلى مناجمها ومنازلها ومساجدها وصيد النمور فيها .

9- بما أن العالم أصبح عالم تكتلات كما هو الشأن بالنسبة لأوربا ، يتوجب علة الأفارقة النظر في هذه المسألة بكل جدية وتدعيم الإتحاد الإفريقي الذي رآى النور في الأونة الأخيرة

واستحداث هيئة تهتم بالتراث وتشجع كل المبادرات الثقافية الهادفة إلى إحياء التراث الإفريقي ، ومن ثمة استخلاص العبر .

وفي هذا السياق ، وقعت الكثير من الدول الإفريقية على اتفاقية حماية التراث الشفوي وغير المادي في أكتوبر 2003 خلال انعقاد المؤتمرالعام لليونيسكو .

الخاتمة :

بناء على ما تقدم ، يخلص الدارس إلى أن المحافظة على التراث الإفريقي هو ضرورة حتمية لمواكبة العولمة وتحدي الألفية الثالثة ، ويتوجب على كل الأفارقة الاهتمام بمراكز جمع وحفظ الوثائف بالطرق العلمية الحديثة لأننا نلاحظ اليوم السباق الكبير بين الدول في إدخال التقنيات العصرية التي تسهل عملية إسترجاع الوثائق عند الحاجة إليها ، حيث أصبح الاهتمام والعناية بها وبدور المحفوظات من الأمور الحضارية التي يقاس عليها تقدم الدول ومدى اهتمامها بتاريخها وإرثها الثقافي خصوصا إذا ما علمنا أن الفن الإفريقي قد ترك بصماته ويعد عريقا له وزنه مما جعله **كالفيل الذي يترك بصماته عندما يمشي .** كما يتوجب اعتماد استراتيجية إقليمية لحفظ التراث وحمايته لأنه أمانة تاريخية تسلم للأجيال المقبلة كشاهد على مدى إسهامات أجدادهم في الحضارة الإنسانية . إن التراث الثقافي الإفريقي قد أبهر كل الفنانين على مستوى المعمورة ، ولا يمكن فهمه وتذوقه إلا عبر إطار تاريخي ، اجتماعي و فني الذي بواسطته يمكن حل الكثير من الألغاز التي تختبئ وراء كل أداة ومن ثمة التعرف على تاريخ الشعوب الإفريقية .

وفي هذا السياق أيضا ، ولمواكبة العولمة التي لا ترحم الضعيف ، ينتظر من الدول الإفريقية المحافظة على تراثها الثري لاسيما **آثار مملكة أكسوم** ، أهرام زمبابوي ، **مخطوطات تمبكتو وأدرار بالجزائر** (التي تضم الآلاف من المخطوطات) والآثار البرونزية المتواجدة في **بينين** أو ما يعرف **بالفن البلاستيكي الإفريقي القديم ببنين** أي تراث **إيفي** ، إضافة إلى اللأقنعة التي تشتهر بها كوت ديفوار لاسيما **أقنعة قبائل غيري ، سينوفو وأكان** (16) وبيتي .

كما يمكننا إضافة **النقوش الحجرية البوشمنية بناميبيا** التي يعود تاريخها إلى 400 سنة قبل الميلاد ، وكذا **تماثيل نيجيريا والكونغو** التي تتميز بندرة أسلوبها ، وكذا حضارة بوبو التي اشتهرت بها جماعات قبيلة بوبو Bobo في المنطقة المسماة اليوم بوركينا فاسو. وتضم قبيلة بوبو جماعات كثيرة من أشهرها بوبوفينغ Bobo-Fing أو بوبو السود، وبوبو أولي Bobo- Ule أو بوبو الحمر، وبوبو غبي Bobo-Gbe أو بوبوالبيض أنتج فنانوها الأقنعة الجميلة المستخدمة عادة في الطقوس المختلفة ولا سيما الزراعية، ومعظم النماذج المعروفة هي من إبداع فناني جماعات بوبو السود من منطقة بوبو ديولاسّو-Bobo Dioulasso.وتميز أعمالهم طرازين مختلفين، الأول ذو بعدين، بأشكال هندسية وتجريدية، ملونة بالألوان الأحمر والأبيض والأسود. أما الطراز الثاني فإنه قريب من فن النحت البارز، ويتخذ شكل قناع خوذة بيضوي الشكل ويعلوه أحياناً تمثال صغير يمثل إنساناً، ويضاف إلى ذلك استخدام مادة الخشب القاسي.

وعليه ، يمكن القول أن الفن الإفريقي يلبي حاجة إجتماعية مرتبطة بطقوس خاصة . ويتوجب على القارة السمراء المحافظة على عاداتها وتقاليدها لاسيما الرقص الشعبي والغناء التي هي مظاهر كلها تشهد على مدى قدم وعظمة التراث الثقافي الإفريقي.

إن المتتبع للشؤون الإفريقية ، يلاحظ أن إفريقيا مازالت تعاني من آثار الإستعمار منها تلك المتعلقة بالنظم الاقتصادية التي مافتئت تدمر مقوماتها باستنزاف للأرض والنبات والمواد الأولية التي مازلت مستغلة من طرف الدول الإستعمارية ألى يومنا هذا ، إضافة إلى مخلفات تقسيم القارة السمراء بين القوى الإمبريالية دون استشارة أصحاب الحق الشرعيين ، الأمر الذي أحدث خللا وساهم إلى حد كبير في ظهور بؤر توتر كثيرة في إفريقيا كما هو الشأن بالنسبة لأزمة البحيرات الكبرى ، كوت ديفوار ، دارفور والصومال .

وفي هذه الظروف السيئة ، وللتمكن من حل مشاكل إفريقيا السياسية والسوسيو – اقتصادية والأمنية والثقافية ، يجب على الأفارقة التحلي بروح التضامن وتشجيع المبادرات السياسية الهادفة إلى رص الصفوف باستحداث هيئات سياسية إفريقية ونظم وهياكل قادرة على حل الأزمات ومواكبة العولمة التي لا ترحم الضعيف .

وللدخول في الألفية الثالثة بكل اطمئنان، و تحدي العولمة، يتوجب على إفريقيا تشجيع المبادرات الإفريقية الهادفة إلى تحقيق الوحدة والانسجام بتفعيل المؤسسات الاقتصادية والمالية الإفريقية كاستحداث بنك مركزي أفريقي ، وبنك إفريقي للإستثمار وصندوق نقد إفريقي ، كما تحتاج إفريقيا إلى عملة موحدة وإلغاء الحدود الموروثة عن الإستعمار لتمكين انتقال السلع والخدمات بكل حرية ، إضافة إلى مباركة المبادرات السياسية والسوسيو – اقتصادية الهادفة إلى رفع صوت وانشغالات القارة السمراء إلى مختلف المحافل الدولية لاسيما تلك المبادرة التي تبنتها إفريقيا مؤخرا والمعروفة **بالشراكة الجديدة من أجل تنمية إفريقيا (نيباد)** ، وذلك بفضل المجهودات الجبارة **لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة** وزعماء آخرين من أبناء هذه القارة مثل **تامو مبيكي** الرئيس الأسبق لجمهورية جنوب إفريقيا ، و**أوباسنجو** الرئيس الأسبق لجمهورية نيجيريا الفيديرالية **وعبدالاي واد** رئيس جمهورية السنغال الذين مازالوا يضحون بكل ما يملكون من طاقة في سبيل المحافظة على مصالح القارة الإفريقية عن طريق توحيد الجهود والبروز كجبهة تستعمل قنوات الحوار مع الدول المتقدمة والتي تعد بمثابة أنجع الوسائل الحضارية لتقليص الهوة بين الدول المتقدمة والدول السائرة في طريق النمو وتمتين علاقات يغلب عليها طابع الثقة المتبادلة بين الطرفين .

الهوامش

1 – يعرف كذلك بالتقويم الميلادي الذي شرعت أوربا في اعتماده منذ سنة 1582 .

2 – يعرف بالتقويم الهجري الذي بدأ المسلمون في اعتماده لتواريخهم وجعلوا من هجرة الرسول (ص) بداية له .

3 – ومن الدول التي سعت جاهدة إلى الاهتمام بتراثها نذكر دولة ماليزيا التي شيدت مبنى المحفوظات الوطنية بكوالالمبور سنة 1982 . فمن بين أنجع الوسائل لحفظ الوثائق هو إقدام السلطات الماليزية على تزويد المبنى بنظام لتكييف الهواء الذي يحافظ على درجة حرارة ورطوبة ثابتتين ويخفض من الأشعة فوق البنفسجية .

4 – Kiwanuka , M .S.M. The kings of Buganda . East African Publishing House , Nairobi , 1971. pp 1 – 200 .

5- Oliver , Roland . History of of the outside world . An inaugural lecture delivered at School of Oriental and African Studies . University of London , May 1964 . pp 1- 22 .

6 – يلاحظ الأن مطالبة بعض الدول الإفريقية باسترجاع أرشيفها كما هو الشأن بالنسبة لأوغندا وجامعتها ماكيريري التي تحصلت من بريطانيا على كمية هائلة من الأرشيف على شكل مايكروفيلمس .

7 – Chretien , J. P. L'Afrique des grands lacs . Flammarion , Paris , 2000 . pp 16- 20.

8 – وصلت أولى البعثات التبشيرية المسيحية البروتستنتية إلى إفريقيا في الخمسينات من القرن 19 م ، بينما طلائع البعثات التبشيرية الكاثوليكية فقد وصلت في الستينات من نفس القرن . وشرعت هذه البعثات في فتح مراكز لها بالمدن الساحلية المطلة على المحيط الهندي ، ثم بدأت في التوغل إلى الداخل سالكة الطرق التجارية التقليدية . أنظر

Coulson , Andrew . Tanzania : A political economy . Oxford University Press , Oxford , 1982 .

9 – بدأ نشاط هذه البعثة سنة 1878 عندما أرسل الكاردينال لافيجري الأباء البيض إلى منطقة البحيرات الكبرى بسبب الصعوبات التي واجهها في شمال إفريقيا نظرا لكون الإسلام كان راسخا في تلك الربوع . وعليه ، كلفه البابا الجديد ليو الثالث عشر بمهمة الإشراف على البعثات المسيحية الكاثوليكية في إفريقيا الوسطى ولاسيما في منطقة البحيرات ، وليضع حدا لمنافسة البعثات التبشيرية الإفريقية لمدينة ليون الفرنسية والبعثات الإيطالية التابعة للراهب كمبوني المتمركزة بالسودان . وساعده في فتح بعض المراكز رؤساء القبائل . وللمزيد من التفاصيل أنظر

Report on education in East Africa prepared by the Phels Stocks commission . London , 1929.

10 – Nyerere , Julius . Freedom and Unity . Oxford University Press , Oxford , 1966 . p 41 .

11 - وتجدر الإشارة إلى أن قبائل البانتو تتكلم لغات البانتوالتي هي أسرة لغوية كبيرة واحدة ،تتشابه جميعا في مفرداتها و قواعدها.و يبدو أنها مشتقة جميعا من لغة واحدة سابقة يطلق عليها **"السابقة للبانتو" (proto-Bantou)** وكلمة **البانتو** ذاتها معناها الناس .فكلمة **"نتو"(ntu)** تعني رجلا ، وكلمة **"با" (ba)**تدل على الجمع ، لذا تستخدم أحيانا للدلالة على الشعب أو الجماعة. ويرى بعض المختصين أن هذه الأسرة اللغوية الضخمة تضم أسرا فرعية تنتشر عموما في شرق القارة و اشهر لغاتها السواحلية كما تتواجد في جنوب غرب إفريقيا ، و أشهر لغاتها هي لغة **لينجالا،** و هي اللغة الرئيسية في الكونغو الديمقراطية (الزاير سابقا) حيث يتكلمها الملايين من السكان و تمتد البانتو إلى جنوب القارة و أشهرها **ناغوتي**. و من لغات البانتو أيضا لغات **الباغندا و الباتورو** في أوغندا .

12 - **المسري (حسين علي**) تاريخ العلاقات السياسية و الاقتصادية بين العراق و الخليج العربي 1258/749. دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع . ط 1 ، بيروت، 1982 . ص 213 .

13 – المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين) . مروج الذهب ومعادن الجوهر . دار الرخاء ، القاهرة ، 1938 .

14 – بوعزيز ، يحي . تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى القرن 20 م . دار هومة للطباعة والتوزيع ، الجزائر ، 2001 . ص ص 197 – 198 .

15 – المرجع نفسه . ص ص 207 – 208.

16 – تنتمي **قبائل السينوفو** إلى المجموعة الفولتائكية نسبة إلى ما يعرف اليوم ببركينا فاسو،تتكلم لغة تعرف **بالسينار،** و هي أقدم المجموعات العرقية بساحل العاج،الأمر الذي أدى بالكثير من المختصين إلى الإعتقاد بأن الموطن الأصلي للسينوفو هو جنوب مالي الحالي و شمال شرق ساحل العاج. يعود تاريخهم إلى العصر النيوليتي.كما اشتهر السينوفو بمهاراتهم كحرفين خصوصا النقش على الخشب ، الرسم و صناعة النسيج. أنظر

Arvel, Anne. Cote d'ivoire. Les éditions Arthaud. Paris, 1990, PP 26-27.

17- من أهم المجموعات الإثنية في ساحل العاج و الوافدة من غانا إبتداء من عصور يصعب تحديدها و لكن أكثرها توافدت على ساحل العاج منذ القرن 16م. ففي الشمال ، إستقرت مجموعة منها تعرف

بأبرون في بندوكو. أما قبيلة أنيي ، فقد أسست عدة ممالك على طول الحدود الشرقية لساحل العاج ألى غاية الساحل . نفس المرجع ص ص 32 – 33 .

ببليوغرافيا

1 – المراجع العربية :

1– المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين) . مروج الذهب ومعادن الجوهر . دار الرخاء ، القاهرة ، 1938 .

2- المسري (حسين علي) تاريخ العلاقات السياسية و الاقتصادية بين العراق و الخليج العربـي1258/749. دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع . ط 1 ، بيروت، 1982 .

3 – بوعزيز ، يحي . تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى القرن 20 م . دار هومة للطباعة والتوزيع ، الجزائر ، 2001 .

2 – المراجع الأجنبية

1 - Apparurai A. Modernity at large:Cultural dimensions of globalization. Minneapolis Univ Press ,1996.

2 - Arvel, Anne. Cote d'ivoire. Les editions Arthaud. Paris, 1990, PP 26-27.

3 - Chretien , J. P. L'Afrique des grands lacs . Flammarion , Paris , 2000 .

–

4 - Coulson , Andrew . Tanzania : A political economy . Oxford University Press , Oxford , 1982 .

5 - Croucher, Sheila L. (2004). Globalization and belonging: the politics of identity in a changing world. New York: Rowman of Littlefield.

6 - Kenyata, Jomo. Au pied du Mont Kenya. Trad. Presence Africaine, Paris, 1960.

7 - Kiwanuka , M .S.M. The kings of Buganda . East African Publishing House , Nairobi , 1971. pp 1 – 200 .

8 - M'Bokolo , E. Afrique noire. Histoire et civilisations . T . II , Hatier-AUPELF . 1992.

9 - Michel , M. Décolonisations et émergence du tiers monde . Hachette, 1993.

10 - Monteuil , V . L'islam noir . Une religion à la conquete de l'Afrique. Le Seuil , Paris , 1980.

11 - Morgan, W.T (ed) East Africa : Its people and resources . Oxford University Press , 1972.
12 - Morris-Jones, W.H and Fisher, J (ed) Decolonization and after. The British and Frensh experience. Franck Cass and co, London, 1980.
13 - Nsibambi, A (2001) “The effects of globalization on the state in Africa: Harnessing the benefits and minimizing the costs. Paper presented at UN General Assembly, second committee: Panel discussion on globalization and the state, November 2, 2001.
14 – Nyerere , Julius . Freedom and Unity . Oxford University Press , Oxford , 1966 . p 41 .
15- Oliver , Roland . History of of the outside world . An inaugural lecture delivered at School of Oriental and African Studies . University of London , May 1964 . pp 1- 22 .
16 - Report on education in East Africa prepared by the Phels Stocks commission . London , 1929.
17 - Rothstein, R. The weak in the world of the strong . The developing countries in the international system. Columbia University Press, New york, 1977.

2 – إمراطورية المونوموتابا Monomotapa

تمهيد :

تذكر المصادر أن الكيانات السياسية الأولى في القارة السمراء قامت حول التعدين وتربية الحيوانات من بقر وغنم في المناطق الرعوية.

وتجدر الإشارة إلى أن النواة الأولى لهذه الكيانات كانت قائمة حول عائلات غنية استطاعت جلب الآخرين للإنخراط تحت لوائها ، ومن ثمة بدأت توسع في أطارها الجغرافي. ويلاحظ هنا أن هذه التنظيمات قد بدأت في شكل رئاسة قبيلة يمكن أن نطلق عليها رئاسة مشيخة أوقبيلة ولكن إذا امتدت لتشمل أكثر من قبيلة ، فتصبح مملكة .

وأيا ما كان الأمر، فإن النظام السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء كان قائما على نمطين من الحكم .فالأول ، يمكن أن نطلق عليه النظام الملكي المركزي ، أما الثاني ، فهو عبارة عن نظام يقوم على أساس اللامركزية .

أ–إطارها الجغرافي :

تعرف هذه الإمبراطورية أيضا بإمبراطورية زمبابوي الكبير أو موينيمونهوموتابا MweneMunhumutapa (1450 م – 1629 م) ، وتقع جنوب شرق إفريقيا وتضم مناطق تقع اليوم في زمبابوي والموزمبيق . كانت عاصمتها تعرف بزمبابوي الكبير.

ب – أصول الامبراطورية:

تعود أصول السلالة الحاكمة في موتابا إلى وقت ما في النصف الأول من القرن الخامس عشر، ووفقا للتقاليد الشفوية، كان أول "موينى" أميرا محاربا يسمى نياتسيمباموتوتا (NyatsimbaMutota) من مملكة زيمبابوي قد أُرسل للبحث عن مصادر جديدة للملح في الشمال.[4] وقد وجد موتوتا الملح بين تافارا (Tavara)، إحدى أقسام شونا، والذين كانوا صائدي فيلة بارزين. وتمت هزيمتهم ، وتم إنشاء عاصمة على مسافة 350 كم شمال زيمبابوي العظمى في زفونجومبي (Zvongombe) بواسطة الزمبيزي.

ويبدوا أن قبيلة **الشونا** كانت النواة الأولى لتأسيس هذه الإمبراطورية .والشونا الذين هم فرع من قبائل البانتو ، هاجروا من الكونغو بزعامة ملكهم **موتوتا** واستقروا في ما يعرف اليوم بزمبابوي . كما تمكنوا من السيطرة على مساحات شاسعة من المنطقة الممتدة من الزمبيزي إلى نهر ليمبوبوLimpopo ، إضافة إلى مناطق تمتد من صحراء كالهاريبنامبيا اليوم إلى المحيط الهندي .

ج – توسع الإمبراطورية:

توسع خليفة موتوتا، ماتوب (Matope)، في مملكته الجديدة لتصبح إمبراطورية تشمل معظم الأراضي بين تافارا والمحيط الهندي. وأصبح سكان الامبراطورية أثرياء جدًا من خلال استغلال النحاس من تشيدزورجوي (Chidzurgwe) والعاج من زيمبيزي الأوسط. وقد أضعف هذا التوسع مملكة تروا (Torwa)، دولة شونا الجنوبية التي نشأت منها أصول

موتوتا وسلالته. واجتاحت جيوش موينيموتابا مملكة مانيكا (Manyika)، بالإضافة إلى الممالك الساحلية قطيف (Kiteve) وماداندا (Madanda). وعندما وصل البرتغاليون إلى سواحل موزمبيق، كانت مملكة موتابا دولة شونا الرئيسية في المنطقة.

التوسع ١ . ٢ توسع خليفة موتوتا، ماتوب Matope) ،)في مملكته الجديدة لتصبح إمبراطورية تشمل معظم الأراضي بين تافارا والمحيط الهندي.[4 [وأصبح الموينيوتابيون أثرياء جدًا من خلال استغلال النحاس من تشيدزورجوي) Chidzurgwe)والعاج من زيمبيزي الأوسط. وقد أضعف هذا التوسع مملكة تروا Torwa) ،)دولة شونا الجنوبية التي نشأت منها أصول موتوتا وسلالته.[4 [واجتاحت جيوش موينيموتابا مملكة مانيكا Manyika)،)بالإضافة إلى الممالك الساحلية قطيف)Kiteve) وماداندا [Madanda)] 4).وعندما وصل البرتغاليون إلى سواحل موزمبيق، كانت مملكة موتابا دولة شونا الرئيسية في المنطقة.[4]

تتمحور ديانة مملكة موتابا حول التشاور الطقسي للأرواح وعبادة الأسلاف الملكيين. وبقيت الأضرحة داخل العاصمة بواسطة الوسطاء الروحيين المعروفين باسم مهوندوروس)". mhondoros)وخدم ١ ٢ ٢ معلومات تاريخية المهوندوروس أيضًا كمؤرخيين شفويين يسجلون أسماء وأعمال الملوك السابقين.[6]وصُدم الموثقون الأوربيون الأوائل للثقافة من أن بعض الرجال، المعروفين باسم تشيبادي) chibadi) كانوا يقومون بما تقوم به المرأة اجتماعيًا في تلك الفترة. ونُقِل عن جواو جوس سانتوس João Jesuit Santos dos))في منشور 1625" ،سيرتاني) certayne) تشيبادي Chibadi)،)الذين كانوا رجالاً يلبسون مثل النساء ويتصرفون بطريقة نسوية ويشعرون بالعار من وصفهم بالرجال ويتزوجون أيضًا من الرجال وسجل بالمثل الكهنة ويعتبرون أن الإدانة غير الطبيعية شرف كبير."[7]أنتوني سيكويرا) Sequeira António) وغاسبر أزيفيدو Gaspar)) Azevedoرجالاً كانوا يلبسون ويجلسون ويتكلمون كالنساء والذين كان يتزوجون بالرجال "للتوحد في الشهوة الذكورية الخاطئة معهم".

2 –المظاهر الحضارية لامبراطوريةالمونوموتابا:

إن معرفتنا بأصول هذه الإمبراطورية التي اشتهرت بإنتاج الذهب وصناعة الحلي الذهبية يعود أساسا إلى علم الآثار وبفضل الكاربون 14 الذي حلل الكثير من المواد المستعملة من قبل سكان هذه الإمبراطورية في صنع التحف الفنية النادرة . وعند وصول البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي إلى الجزء الجنوبي الشرقي من القارة السمراء **في اطار الكشوفات الجغرافية – ديغو كاو الذي اكتشف نهر الكونغو** ، كانت هذه الإمبراطورية قد دخلت في مرحلة الانحطاط . وكانت عاصمتها تسمى زمبابوي أين تم اكتشاف الكثير من الآثار والتحف الفنية ، مما يدل على قدم هذه الإمبراطورية .

والجدير بالذكر أنه تم اكتشاف ما يعرف اليوم بآثار **زمبابوي** سنة 1867 م . ومن أهم هذه الآثار المعبد المشيد من الحجارة التي يبلغ سمكها ما بين 4 و 5 أمتار، إضافة إلى القلعة التي يبلغ طولها 10 أمتار .

وبفضل الحفريات ، تحصلنا على معلومات قيمة حول مظاهر الحضارة في هذه الإمبراطورية نذكر منها الأواني الفخارية الصينية والأواني المصنوعة من الزجاج التي تعود إلى الفترة الممتدة من القرن 6 م و القرن 15 م . وعلى هذا الأساس ، يمكننا القول أن هذه الامبراطورية كانت لها علاقات تجارية مع العالم الخارجي لاسيما العالم الأسيوي كالهند والصين .

وكانت هذه المنطقة قبل مجيء البرتغاليين غنية بالحديد والذهب والنحاس، وكانت هذه الثروة المعدنية ملك الملك. ويعد مابونغوبوي Mapoungouboué أحد أقدم مواقعها وأهمها، اكتشفت فيه عام 1933. 1935 قبور تحوي صفائح ذهبية محززة بدقة وأساور وخرزات، وذخائر غيرها نسبت إلى الفينيقيين أو العرب أو إلى أسطورة أوفير Ophir. ولكن الفرضية المعاصرة تذكر أهمية استخدام الحديد والزراعة في الألف الأول قبل الميلاد بعد انتقالهما من النوبة بوساطة أجداد «البانتو». وقد اختلطت جماعات «البانتو» القدماء وتصاهرت مع سكان المنطقة، وشيد أحفادهم زمبابوي الكبيرة وأبراجها المنيعة، ودفن زعماؤهم وأبطالهم في تلال مابونغوبوي. وبفضل الشاطئ الشرقي الإفريقي انفتحت البلاد على الشرق وتجارته، مما يفسر وجود النقود العربية والخرز الهندي والخزف الصيني الذي يعود إلى القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر. ومن أهم الآثار:

. منحوتة زمبابوي الكبيرة ذات الشكل الإهليلجي المتميزة بعمارتها وجدرانها التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين متراً وأحجارها الضخمة المتشابكة من دون إسمنت أو ملاط، وعلى الواجهة شارة كبيرة فسرها ديغوس De Goes وديباروس De Barros بأنها كتابة.

. تمثال النسر الصياد.

. تمثال شخص واقف وعلى ظهره خطوط شاقولية عريضة وعميقة.

- أوان حجرية مزينة بوحدات زخرفية هندسية وحيوانية.

أما ديانة مملكة موتابا فتمحورتحول التشاور الطقسي للأرواح وعبادة الأسلاف الملكيين. وبقيت الأضرحة داخل العاصمة بواسطة الوسطاء الروحيين المعروفين باسم *مهوندوروس (mhondoros)*". وخدم المهوندوروس أيضًا كمؤرخيين شفويين يسجلون أسماء وأعمال الملوك السابقين.وصُدم الموثقون الأوربيون الأوائل للثقافة من أن بعض الرجال، المعروفين باسم *تشيبادي (chibadi)* كانوا يقومون بما تقوم به المرأة اجتماعيًا في تلك الفترة. ونُقِل عن جواو جوس سانتوس (Jesuit João dos Santos) في منشور 1625، "سيرتاني (certayne) *تشيبادي (Chibadi)*، الذين كانوا رجالاً يلبسون مثل النساء ويتصرفون بطريقة نسوية ويشعرون بالعار من وصفهم بالرجال ويتزوجون أيضًا من الرجال ويعتبرون أن الإدانة غير الطبيعية شرف كبير.وسجل بالمثل الكهنة أنتوني سيكويرا (António Sequeira) وغاسبرأزيفيدو (Gaspar Azevedo) رجالاً كانوا يلبسون ويجلسون ويتكلمون كالنساء والذين كان يتزوجون بالرجال "للتوحد في الشهوة الذكورية الخاطئة معهم".

كانت إمبراطوريةالمونوموتاباعلى غرار سائر المجتمعات الإفريقية تتميز بعبادة ظواهر ما فوق الطبيعة، وكان السحر يمارس بشكل واسع، إضافة إلى وجود الكهنة في المعابد الذين يعملون على الإنباء بالغيب عن طريق الوحي. وعلى هذا الأساس، كانت الديانة في الامبراطورية تدور حول عبادة الموتى، والاعتقاد أن أرواح الموتى تعود بعد أعوام وتتجسد في الاطفال حديثي الولادة. وعليه، فهم يسمون هؤلاء الاطفال الجدد بأسماء الذين ماتوا، كما تتجلى طقوسهم الدينية في تقديم القرابين.

وقد ترك العرب كتابات أشارت إلى إمبراطورية **مونوموتابا** وحضارتها لاسيما **المسعودي** صاحب كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر الذي زار شرق إفريقيا عام 912 م وأشار إلى مناجم الذهب في زمبابوي وميناء **سوفالا** الذي كان يتم عن طريقه تصدير الذهب .

كما اشتهرت هذه الإمبراطورية بإنتاج الذهب ، العاج والنحاس . وعليه ، فإن تجارة الذهب قد أثرت تأثيرا غير مباشر في تاريخ هذا الجزء من القارة السمراء لأن إنتاج الذهب في هذه الإمبراطورية قد أوحى لدى الأوربيين الاعتقاد بأن الإمبراطورية بها مناجم الذهب التي كانت ملكا للنبي أو الملك سليمان المشار إليها في الإنجيل، وربما ساهم هذا الإعتقاد في هجرة البوير الهولنديين إلى جنوب إفريقيا وتأسيسهم لمستعمرة الكاب .

وتعدُّ الكشوف الأثرية في زيمبابوي الكبرى من أهمِّ الكشوف المعاصرة التي غيَّرت كثيرا من المفاهيم عن تاريخ منطقة الجنوب الافريقي، وهي مدينةٌ أثريَّة قديمةٌ تقع على بعد (17) ميلا جنوبيي شرق زيمبابوي الحالية، أي غير بعيد عن مدينة سفالة، اكتشفها المستكشف الألمانيCarl Mauchعام 1871 ، وتمتدُّ على مساحة (700 هكتار) بأكثر من تسعين ألف بيت.

وفي هدا السياق ،تأتي أهميَّة هذا الموقع الأثري في تأكيده على العلاقات التِّجاريَّة والثقافية التي ربطت هذه الحاضرة في فترة أوْج ازدهارها (من القرن الثَّالث عشر إلى الخامس عشر الميلادي) بالمدن التِّجاريَّة وممالك الطِّراز الممتدَّة على السَّواحل الإفريقيَّة، وكذلك المراكز التِّجاريَّة في الهند، والصِّين، والجزر الإندونيسية.

وتوج المؤرِّخون المكتشفات الاثرية فيها بدراسات تاريخية أثبتت وجود نشاطٍ تجاريٍّ بين هذه المدينة وبين مدينة كلوة خاصة. بالإضافة إلى ما ثبت تاريخيًّا من وجود تجارٍ سواحيليين مسلمين قطنوا مدينة زيمبابوي الكبرى، وكان لهم نفوذٌ على ملوكها [11].بل خلُص غير أولئك إلى القول بوجود عرب ومسلمين نزحوا إلى تلك المنطقة واستوطنوا بها بشكل دائم، وذلك منذ القرن الرَّابع عشر الميلاديّ تقريبًا [12].ومثَّلت مدينة زيمبابوي الكبرى –في هذا التَّبادل التِّجاريّ الثَّقافي– الواسطة بين العمق الإفريقيّ الشَّاسع، وبين العرب والمسلمين. وقد أكَّد ذلك نماذج حجريَّة معماريَّة أخرى اكتُشفت في المنطقة الجنوبيَّة من بوتسوانا الحالية(Makgadikgadi)، وهي تمثل المنطقةَ الوسطَ في الجنوب الإفريقي، مما حمل الباحثين على القول بأنها تؤكدأن الاختراق الإسلاميي قد بلغ منذ ذلك العصر أواسط تلك المنطقة التي كانت شهيرة بتجارة العاج وصناعته.

3 – سقوط الإمبراطورية :

أن ظهور البرتغاليين على مسرح الأحداث في المنطق منذ النصف الثاني من القرن 15 م قد ساهم بدون شك في سقوط هذه الإمبراطورية العظيمة خصوصا إذا ما علمنا أن البرتغاليين قد وضعوا قدما في الشريط الساحلي المطل على المحيط الهندي منذ سنة 1505 م . ومن العوامل المباشرة التي ساهمت في سقوط هذه الإمبراطورية نذكر ما يلي :

- الصراعات الداخلية وانفصال الكثير من الأقاليم عن الحكومة المركزية .
- نفاذ الذهب من الأودية خصوصا إذا ما علمنا أن هذه الإمبراطورية بنت مجدها على الكميات الكبيرة من الذهب التي كانت تنتجه.
- ظهور تجارة الرقيق التي أصبحت سلعة حيوية بالنسبة للأوربيين بصفة عامة والبرتغاليين بصفة خاصة . جعل الاوربيون من تجارة الرقيق في إفريقيا تجارة عالمية لها مؤسساتها في شكل شركات لها فروعا تنظم حملات القنص والنقل والتجميع ،وجعلوا لها وكلاء وعملاء وسماسرة وأسواقا منظمة في إفريقيا وأوربا ومستعمراتها في العالم الجديد . وكان الرقيق في هذه المراحل يعاملون معاملة السلعة خصوصا إذا ما علمنا أن الأوربيين كانوا يعتقدون أن الإنسان الافريقي الاسود لا قيمة له إلا في سواعده القوية . مسألة الرق في افريقيا . بحوث ودراسات : وقائع ندوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المنعقدة بتونس 1985 م ، ص 105.

وفي هذا السياق ، سيطرت البرتغال على هذه الإمبراطورية سنة 1629 م ، وما تبقى من ممثلي الأسرة الحاكمة أسسوا مملكة في الموزمبيق عرفت بمملكة كارنغاKaranga ، **كما لقب ملوك هذه المملكة بمومبوسMambos الذين حكموا إلى غاية 1902 م .**

أما أهم أباطرة وملوك الإمبراطورية نذكر ما يلي :

- نياتسيمباموتاNyatsimbaMutota(1430 -1450)
- ماتوبينيانهيهوينيبيذزاMatopeNyanhehwe (1450-1480)
- مافوراماوبويMavuraMaobwe(1480).

أثار مملكة المونوموتابا بزمبابوي.

Source : Wikipedia.

آثار زمبابوي

المصدر: Wikipedia

ببليوغرافيا :

1 - T.H. Elkiss. The Quest for an African Eldorado: Sofala, • Waltham, .SouthernZambezia, and the Portuguese, 1500-1865 .MA: Crossroads Press, 1981

.

2 - J. D. Fage, Roland Anthony Oliver (ed). The Cambridge History of Africa, (Cambridge University Press, 1986), p567.

3 - ElizabethIsichei, A History of African Societies to 1870, (Cambridge University Press, 1997).

4- FernandBraudel, Siân Reynolds, Civilization and Capitalism 15th-18th Century, (CA: University of California Press, 1992), p13.

5- ماكيفيدي كولين. أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987)، ص69.

6- Philip, Curtin. African History from Earliest times to Independence, (London: Longman, 2nd. Ed. 1995), p250-251.

7- Peter S. Garlake. Early Art and Architecture in Africa, (Oxford University Press, 2002), p184.

8 –Chretien, J.P . L'Afrique des grands lacs. Flammarion, Paris, 2000.

9 –Coulson, Andrew. Tanzania: A political economy. Oxford University Press, Oxford, 1982.

10 - Kiwanuka, M .S.M. The kings of Buganda. East African Publishing House, Nairobi, 1971.

11 - Monteuil, V. L'islam noir. Une religion à la conquête de l'Afrique. Le Seuil, Paris, 1980.

12 - Oliver, Roland. History of of the outside world. An inaugural lecture delivered at School of Oriental and African Studies. University of London May 1964

13 - McEvedy, Colin. The Penguin Atlas of African History. Penguin Books, London, 1995.

14 - Paulme, Denis. Les Civilisations Africaines. Presses Universitaires de France. 1965.

15-Smith, Stephen. Atlas de l'Afrique. Edition Autrement, Paris, 2005

16-منصف بكاي. أضواء على تاريخ إفريقيا. دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

-رالف لنتون. شجرة الحضارة، ج3، ترجمة: محمد سويدي، المؤسسة الوطنية

3 - مملكة ساموري توري في غرب إفريقيا:

مقدمة:

إن ما يثير الانتباه في هذا المحور من بحثنا هذا هو بدون شك تجاهل الباحثين لهذه الشخصية الفذة أو اقتصارهم على ذكر جانب منها حتى أن الباحث إذا ما أراد البحث في مؤلفات هؤلاء، فلا يجد إلا قشورا لا تسمن أو تفاصيل لا تجدي أو أخبارا مبعثرة لا تعطي الصورة الحقيقية لهذا الزعيم الموقر والقائد المظفر.

1 – نشاة ساموري توري.

ساموري **توري** سنة 1837بغينيا وينحدر من أصل مالنكي.[1] مارس حرفة التجارة ولاسيما تجارة الأسلحة النارية التي كانت تلقى رواجا في المنطقة الممتدة من غينيا إلـى النيجر. أراد التصدي للإمبريالية الفرنسية وتواجدها في جنوب البلاد، ومن ثمة إحياء الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا بعد تقهقرها بسبب الحروب الطاحنة بينها من جهة والتنافس الإمبريالي على المنطقة من جهة أخرى. وفي سنة 1874، دعا إلى إقامة دولة إسلامية في غينيا، ساحل العاج،ليبيريا، سيراليون وفولتا العليا (بوركينا فاسو اليوم) لكنه اصطدم بالفرنسيين الذين بدأوا في التوسع بالمناطق المحـاذية لنهر النيجر.[2]

وفي هذا السياق، فإن المتتبع لتاريخ غرب إفريقيا يلاحظ أن سيطرة الأوربيين على هذا الجزء من القارة السمراء اعتمد على أسلوب القوة أو الدبلوماسية التي تقود إلى فرض الأمر الواقع على الأهالي الأفارقة.وعليه، اعتمد الفرنسيون على أسلوب القوة لإخضاع المناطق التي سيطروا عليها في غرب إفريقيا على عكس الإنجليز الذين عادة ما اعتمدوا على الأسلوب الثاني أي الدبلوماسية في مسألة تكريس الهيمنة.

---

[1]– نسبة إلى شعب **المالنكي** المنحدر من الأصل **الماندي** (نسبة إلى جبال **الماندنغ** بمالي) يتمركز بشمال ساحل العاج حاليا. تنحدر منه قبيلة ديولا وسكان المنطقة الممتدة من أوديبني إلى توبا. (أنظر الخريطة). ;Pauline G. Djité op.ci

[2]C. McEvedy. The Penguin Atlas of African History. Penguin Books, London, 1995. pp 108-114.

وأمام فشل ساموري توري في السيطرة على منطقة **سيكاسو** وتقدم الفرنسيين بالمنطقة، كانت المواجهة العسكرية بين الطرفين ضرورة حتمية. ففي سنة 1892، بدأت المواجهات

بين الطرفين عندما قرر الفرنسيون إزالة هذا الخطر الذي يهدد مصالحهم في غرب إفريقيا. وعلى هذا الأساس جهزوا حملة عسكرية بقيادة **همبرت** على رأس 13000 عسكري و3000 حمال لوضع حد لتوسع ساموري توري في المنطقة.[3]

والجدير بالذكر أن انهزام ساموري توري أمام قوات همبرت لم تثن من عزيمته.وعليه، قرر التوجه جنوبا إلى ما يعرف اليوم بساحل العاج وإلى منطقة أوديني بالذات.[4]

وفي شرق فيما يعرف اليوم بساحل العاج، هاجم ساموري توري قبائل السينوفو سنة 1890 ثم قبيلة **لوبي** (الوافدة من بوركينافاسو). كما سيطر على **بونة**[5]الواقعة أقصى شرق ساحل العاج. إن اجتياح **ساموري توري** لمدينة بونة وحرقها يعود إلى تلك المعاهدة الموقعة بين أحد أعيان المدينة والفرنسيين والتي نصت على قيام تحالف بينهما لمواجهة قوات ساموري توري الزاحفة. وعليه، تمكن أحد أتباع ساموري والمدعو **سارنكي**من اقتحام المدينة وقتل النقيب الفرنسي **برانلو** والقضاء على قواته.[6]ومع حلول سنة 1891، أصبح ساموري توري على رأس دولة إسلامية امتدت رقعتها من **أوديني** *غربا* إلى **بونا** شرقا. وبالموازاة مع جهاده وتصديه للغزاة الفرنسيين، لعب ساموري توري دورا رائدا في الفكر والثقافة العربية الإسلامية، وفي القيام بإصلاحات سياسية عن طريق الاستعانة بالنظم

---

[3] M. Gueye. Initiatives et résistances africaines en Afrique occidentales de 1880 à 1914. In Adu Boahen, A. (ed). Histoire générale de l'Afrique, VII, Présence Africaine / Edicef / Unesco, Paris, 1989. p 117.

[4]G.Hanotaux et Alfred Maritineau. Histoire des colonies Françaises et de l'expansion de la France dans le monde, tome IV, Paris 1929. P 205.

[5]بونة –العاصمة القديمة لمملكة كولنغو. كانت مركزا إسلاميا في القرن التاسع عشر 19م. تردد عليها علماء أمثال كراموكو بابا وكاراموكو غسوما الذي يعتقد أن أصله من مكة المكرمة. تمركزت بها قبائل مثل كولنغو ولوبي.

[6] Ibid.

العربية الإسلامية في الحكم والإدارة وكل مظاهر السيادة الدينية والمدنية العسكرية كتقسيم المناطـق الخاضعة له إلى ولايات.[7]

2 – النظم السياسية والسوسيو-اقتصادية لمملكة ساموري توري:

إن النظام السياسي والإداري الذي طبقه ساموري **توري** يمكن مقارنته وبدون تحفظ إلى أقصى درجة بنظم الأمم أو الدول الحديثة. ولم يكن من الصدفة ما أقدم عليه هذاالزعيم الإفريقي في مجال وضع دعائم أو أسس الدولة بالمعنى الحديث في جميع المجالات سواء أكان المجال الإداري أو العسكري أو الاقتصادي وحتى المجالين الاجتماعي والثقافي، فقد تبنى هذا الزعيم ثقافة وطنية داخل الدولة التي أسسها بالاعتماد على الثقافة العربية الإسلامية كركيزة أساسية في تكوين شعور مشترك بين أفراد المجتمع بتوحيد قبائله وتعميم تلك الثقافة على جميع القبائل لاسيما تلك التي كانت وثنية.

وعليه، يمكن القول أن **ساموري توري** قد حقق وحدة القبائل بفضل فلسفته التي اعتمدت على تجاوز الأطر القبلية لصالح الدولة التي أسسها ، والعمل على تنمية شعور وطني والولاء للدولة على حساب الولاءات الضيقة للجماعة القبلية أو الطائفية وغيرها من الولاءات التي تعرقل تطور الدولة التي أرسى دعائمها من جهة ، والتصدي للغزاة الفرنسيين الذين كانوا يهددون دولته الفتية من جهة أخرى.

---

[7] يحي بوعزيز. تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى مطلع القرن العشرين 20م. دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، 2001. ص. 171.

ومن بين الإصلاحات التي يمكن الإشارة إليها، هي تلك المتعلقة بالجانب الإداري الذي وضع له ساموري توري أسس نظام إداري يرتكز على المركزية واللامركزية في نفس الوقت كتقريب الإدارة المركزية بالأقاليم عن طريق استحداث جهاز يتم عن طريقه تعيين محافظين أوكلت إليهم مهام مراقبة ما يجري في الأقاليم وهذا على غرار ما فعله نابليون بونابرت في فرنسا.[8]

أما في الجانب الاقتصادي والاجتماعي ، فقد تبنى ساموري توري إصلاحات مستمدة من النظم الاقتصادية العربية الإسلامية كفرض الزكاة ، الخراج ، استعمال المقاييس والمكاييل والموازين ، إضافة إلى طرق استخلاص الضرائب للخزينة قصد توفير الموارد المالية اللازمة للإنفاق على المشاريع كبناء المدارس والمساجد (تملك مدينة بوندوكو الواقعة شرق ساحل العاج 52 مسجدا حتى أصبح يطلق عليها بالمدينة ذات 52 مسجدا) وشراء الأسلحة لمواجهة الإمبريالية الفرنسية التي كانت تخطط لضم البلاد إلى ممتلكاتها الاستعمارية.[9]

أما في الجانب الاجتماعي، نلاحظ أن هذا الزعيم لم يهمل مسألة تحسين الظروف الاجتماعية لمقاتليه خصوصا ما تعلق بأولئك الجرحى الذين كانوا يستفيدون من منح مقابل الخدمات المقدمة للدولة.[10]

أما في الجانب الدبلوماسي، فقد كثف ساموري توري من الاتصالات بالإنجليز الذين كانوا يتاجرون بالمنطقة ويسيطرون على ساحل الذهب (غانا اليوم). ونظرا لاشتراك غانا مع ساحل العاج في الحدود، وقع اتصال بين **ساموري توري** والإنجليز الذين زودوه

[8] C. Benekezouh. Op .cit. pp 953-954.

[9] يحي بوعزيز. مرجع سابق. ص. 171.

[10] Benekezouh. Op.cit. pp. 953.

بالأسلحة النارية والخيول ليتمكن من التصدي لمخططات الفرنسيين الرامية إلى السيطرة على كل غرب إفريقيا.[11]وتدكر المصادر أن سامري توري وطد علاقات متينة مع حاكم سيراليون لاسيما في الميدان التجاري، كما أرسل مبعوثيه ،لى فريتاون عاصمة سيراليون للتفاوض على تزويده بالأسلحة.[12]

وتشير بعض المصادر إلى أن ساموري توري استغل لصالحه التنافس الأنجلو- فرنسي في غرب إفريقيا لكي يتسنى له استمالة بريطانيا في صراعه مع الفرنسيين. ويبدو أن ساموري توري قد نجح إلى حد كبير في تحقيق هدفه خصوصا إدا ما علمنا أن وزارة الحربية البريطانية قد بدأت تدرك حجم الخطر الفرنسي على مصالحها في المنطقة. وعليه، حثت وزارة الحربية البريطانية الحكومة على ضرورة تبني إستراتيجية تحول دون تمكن فرنسا من التوغل أكثر في غرب إفريقيا، وأكدت على ضرورة توقيع معاهدة صداقة مع ساموري توري باعتباره زعيما كبيرا يحسب له ألف حساب.[13]

وبناء على ما تقدم، وأيا ما كان الأمر فإن توطيد العلاقات بين ساموري توري وسيراليون يبرره احتياج هدا الزعيم الإفريقي الوطني للسلاح والدخية لمواجهة الإمبريالية الفرنسية وأطماعها في المنطقة.

وفي الجانب العسكري، تمكن ساموري توري من تكوين جيش قوي ينقسم إلى فرقتين، المشاة التي وصل تعدادها حوالي 35000 سنة1887، والخيالة التي بلغ

تعدادها 3000 في تلك الفترة، إضافة إلى حوالي 6000 بندقية لكن عدم اكتسابه للمدافع حال دون تمكنه من مواجه القوات الإمبريالية الفرنسية في بعض المعارك.[14] وتذكر المصادر أن **ساموري توري** قد تميز بذكائه الشديد بحيث كان يخطط تخطيطا محكما قبل أية مواجهة مع العدو. فدراسة نقاط قوة وضعف العدو. كانت من أولوية

[11]M. Gueye. Op.cit. pp 114-117. For full details see Cook, J.J. "Anglo-French Diplomacy and Contraband Army in Colonial Africa. " 1884-1897. in Africa Studies Review, XIII, 1974.
[12]C. Fyee. A history of Sierra Leone. Oxford University Press, Oxford, 1962. P 448.
[13] F.O (Foreign Office) 403/85 N0 47. War Office to Foreign Office, May 21, 1889.
[14]Ibid.

الأولويات. وعلى هدا الأساس، لم بغفل هذا الزعيم مسألة الجوسسة على العدو بحيث طور جهازا أوكلت إليه مهمة التجسس على العدو وجمع كل المعلومات الخاصة به.[15]

3 – الاصطدام بالفرنسيين وسقوط مملكة ساموري توري:

في مطلع التسعينات من القرن 19م، بدأ الفرنسيون يخشون على مصالحهم في ساحل العاج ولاسيما بجنوب البلاد وسواحله الذي كان تحت سيطرة الفرنسيين. فأمام الانتصارات التي حققـــها ساموري توري شمال البلاد ، قررت السلطات الإمبريالية الفرنسية إرسال حملة عسكريـة للقضاء على دولة **ساموري توري** الإسلامية بقيادة النقيب **مينار** الذي غادر الساحل علـــى رأس قوة لملاحقة ساموري . عسكرت هذه القوة **بسيغيلا** الواقعة وسط البلاد ولكنها لم تنجو أمام ضربـــــات جيش ساموري توري الذي ألحق بها الهزيمة وقتل **مينار** وأتباعه سنة 1892. (Arvel,A.op.cit. p.37.)

وفي مارس سنة 1897 ، تمكن ابنه سارنكني موري من إلحاق الهزيمة بفرقة عسكرية بريطانية بقيادة **هندرسن** في منطقة **وا**. أما **ساموري توري** ، فقد تمكن من السيطرة على منطقة **كونغ** في شهر ماي ، ومن ثمة التوسع إلى غاية **بوبو**. **(Gueye.M.op.cit. pp. 114-117.**

رأينا سابقا الظروف التي قادت السلطات الإمبريالية الفرنسية إلى تعيين **فرديي** مقيما بجنوب ساحل العاج ، الأمر الذي أدى بهذا الأخير إلى الاستعانة ببعض المغامرين الفرنسيين أمثال **تريشلابان** و**بنجر** . فالأول استطاع أن يبرم اتفاقيات مع بعض قبائل ساحل العاج مثل **بيتي** (الاسم الحقيقي لهذه القبيلة هو ماغوي ولكن تسمية بيتي تعود إلى الحقبة الاستعمارية . وهي أيضا قبيلة تنتمي لمجموعة كرو الوافدة إلى ساحل العاج من ليبيريا) (Arvel,A.op.cit. p. 22.) **وأنيي** . وفي سنة 1888 ، وصل إلى مدينة **بوندوكو** التي كانت في الأصل تعرف بمدينة غونتوغو ولكن الفرنسيين حرفوا هذا الاسم ليصبح بوندوكو(نفس المرجع . ص ص. 151-152.) وأمضى اتفاقية مع ملك وزعيم قبيلة **آبرون** التي تنتمي إلى المجموعة العرقية **أكان** الوافدة من غانا .

[15]Benekezouh. op.cit.

ونظرا للضغط المتزايد علـى قبيلة **أبرون** من قبل مملكة **آشنتي** بغانا ، اضطرت إلى الهجرة إلى غرب ساحل العاج في القرن السابع عشر 17م لتستقر بمنطقة بوندوكو أين استقبلهم أكاني زعيم من زعماء قبائل **السينوفو** الذي رحب بهم . وعليه ، استقروا إلى جانب **كولنغوس** المنحدرين من أصل سينوفو ولكن سرعان ما هاجموا كولنغوس وأخضعوهم لسلطتهم ، كما أسس أحد زعمائهم المدعو **تون ديرتي** مملكة عرفت باسم **غيامان** ومعناه المهاجرين وهو اسم أطلقه عليهم **الآشنتي** . ثم التقى ببنجر الذي كان قد وصل إلى كونغ وأمضى سلسلة من الاتفاقيات مع زعماء قبائل **ديولا** الذين اعترفوا بالحماية الفرنسية على هذه المناطق. وعليـــه ، يمكننـا القـول أن الفرنسيين قد تمكنوا ولأول مرة من ربط مناطق نفوذهم الواقعة بين شمال السنغال وجنوب شرق ساحل العاج .

وفي ظل هذه الظروف ، وتسارع الأحداث على مسرح الأحداث السياسية في العالم بما في ذلك بلوغ التنافس الإمبريالي ذروته على القارة الإفريقية خصوصا بعد انعقاد مؤتمر برلين (1884-1885) ، ونظرا للتنافس الألماني البريطاني علـى شرق إفريقيا ، وتجنبا للاصطدام مع فرنسا، فقد شهد مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر 19م تصفية بعض الأجواء بين فرنسا وبريطانيا من أجل اقتسام مناطق النفوذ فـــي غرب إفريقيا. وعليه ، فقد سمحت هذه الظروف لفرنسا بإحكام سيطرتها الكلية على ساحل العاج.

وفي 10 مارس سنة 1893 ، أصدرت الحكومة الفرنسية مرسوما ينص على تعيين **بنجر** حاكما عاما على مستعمرة ساحل العاج (Rougerie,op.cit.p. 90) ، وقررت القيادة العسكرية الفرنسية إرسال قوات عسكرية لمواجهة ساموري توري الذي كان يسيطر على كل شمال البلاد ويعسكر بمنطقة أوديني **Odienné** .

وبناء على ما تقدم ، يمكن القول أن الإستراتيجية الفرنسية في تلك الفترة كانت تهدف إلى تحقيق جملة من الأهداف نذكر منها ما يلي :

أولا : التخلص من **ساموري توري** الذي كان يقف حائلا دون تمكن الفرنسيين من إخضاع شمال البلاد.

ثانيا : إحكام السيطرة على شرق البلاد والتخلص من بعض زعماء القبائل الرافضين للهيمنة الفرنسية كما هو الشأن بالنسبة لبعض زعماء القبائل في منطقة **أبنغورو Abengourou** التي يسيطر عليها ملك من قبيلة **أنيي Agni .** وعليه ، تمكنت القوات العسكرية الفرنسية بقيادة النقيب **كلوزيل** من إلحاق الهزيمة بهذا الملك وأتباعه ، وبالتالي ضم هذه المنطقة إلى فرنسا . (Arvel,A.op.cit. p.38.)

ونظرا للضغط المتزايد على ساموري توري ، اضطر هذا الأخير إلى نقل مجريات القتال غربا أي إلى بعض المرتفعات **بغينيا** لكنه لم يفلح لأن الفرنسيين قداستمالوا إليهم الكثير من القبائل ولاسيما **سينوفو** الذين هزمهم ساموري توري من قبل . وبعد سلسلة من المعارك ، تمكنت القوات الفرنسية بقيادة النقيب **غورو Goureau** من محاصرة ساموري توري بقرية **غيليمو Guelemou** بالقرب من الحدود مع غينيا وهذا بمساعدة قبيلتي **دان و تورا Dans and Touras .** وأمام الحصار الشديد ، وتحالف الكثير من قبائل ساحل العاج مع القوات الفرنسية ضد ساموري ، تمكنت فرنسا من أسره يوم 29 سبتمبر سنة 1898 ، ومن ثمة نفيه إلى الغابون أين توفي بها سنتين من بعد. (Gueye,M.op.cit.p.117.)

كما تمكنت القوات الفرنسية من إلقاء القبض على **أحمدو** وهو أحد أبناء **فاكابا توري**

ومن المقربين لساموري توري وحاكم أوديني الذي لم يطلق سراحه إلا في سنة 1905 ، وتوفي بأوديني سنة 1912. وعليه ، تمكنت السلطات الفرنسية من القضاء نهائيا على حركة ساموري توري . كما كلفت السلطات الإمبريالية الفرنسية النقيب **كونراد** بفتح مركز بأوديني وضمها للممتلكات الفرنسية بساحل العاج. (Arvel,A.op.cit.p.178.)

إن المقاومة الشعبية بساحل العاج لم تنته بالقضاء على ساموري توري ومقاومته الشعبية بل تواصلت مع حلفاء الأمس أي القبائل التي ساعدت فرنسا في القضاء على

ساموري توري مثل قبائل **تورا ، دان و سينوفو** الذين أدركوا بأن الفرنسيين جاؤوا كغزاة ليخضعوهم تحت سيطرتهم خصوصا إذا ما علمنا أن فرنسا قد أقدمت على فرض الضرائب ومصادرة الأراضي ، إضافة إلى أن زعماء تلك القبائل فهموا الدرس لأن مواصلة فرنسا إخضاع المناطق الأخرى من ساحل العاج هو مخطط إمبريالي كان يهدف إلى التوسع وإحكام السيطرة على البلاد.

وواضح مما سبق ذكره أن فرنسا لم تحكم سيطرتها الكلية على البلاد إلا في سنة 1915 بالقضاء على مقاومتي **غيري ودانس** . كما بقي مركز **كافالي** الواقع جنوب البلاد والمحاذي للحدود مع ليبيريا تحت الإدارة العسكرية الفرنسية إلى غاية جويلية سنة 1921 ، بينما مراكز **توليبلو ،غيغلو وتاي** ، فظلت كذالك إلى غاية سنة 1946. (Ibid)

وبالموازاة مع هذا النشاط الثوري المكثف في مختلف أرجاء ساحل العاج ضد التواجد الإمبريالي الفرنسي من جهة ، واستفحال أمر حركة ساموري توري من جهة أخرى، كانت فرنسا تواجه متاعب مع الملك **ديكيي** المنتمي لقبائل **أنيي** بمنطقة **أبنغورو** والذي رفض الامتثال للقرارات والقوانين الفرنسية سنة 1894 ، الأمر الذي جعل السلطات الإمبريالية الفرنسية تضطر إلى إرسال حملة عسكرية بقيادة الضابط **كلوزيل** إلى **أبنغورو** والقضاء على حركة الملك **ديكيي** ، إضافة إلى تعيين **كلوزيل** حاكما على تلك المنطقة ، ومن ثمة خولت له الإدارة الاستعمارية كل الصلاحيات لإدارتها. (Ibid)

الخاتمة :

وبناء على ما تقدم، يخلص الدارس إلى الاستنتاجات التالية:

1- ساهمت فكرة غياب الكيان الوطني عند بعض القبائل الوثنية في ساحل العاج إلى حد كبير في تسهيل مهمة فرنسا في السيطرة وفرض الأمر الواقع.

2- نجاح الفرنسيين في تطبيق سياسة فرق تسد ليتسنى لهم إحكام السيطرة على ساحل العاج باستمالة بعض القبائل كدان وبيتي قصد التصدي لمقاومة ساموري توري والقضاء على نشاطه الثوري.

3- إن تبني ساموري توري للأسلوب الثوري ضد فرنسا يبرره الحماس الفياض الذي كان يتحلى به هذا الزعيم من أجل إحياء الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وإرساء دعائم دولة إسلامية حديثة تتمكن من التصدي لأطماع الإمبريالية التي كانت تترصد للقضاء على تلك

الممالك الإسلامية والسيطرة على غرب إفريقيا وفق مخطط إمبريالي أوربي كان يهدف إلى اقتسام القارة السمراء.

4 - تعد حركة ساموري توري امتدادا لحركة الجهاد ضد الإمبريالية الفرنسية في غرب

إفريقيا ، والتي نذكر من أهمها حركة **الشيخ عمر بن سعيد التيجاني والشيخ أحمد البكاي الكنتي** الذي ينحدرمن قبيلة كنتة التواتية في الجنوب الجزائري ، و قد سكن أجداده الأولون منطقة أزواد خلال القرن 17م و تبوأوا مركز الزعامة الدينية على الطريقة القادرية منذ أيام جده **الشيخ المختار الكنتي .** سكن **أحمد البكاي** تومبكتو واتخذها مركزا للتعليم وبعد أن شارك في الزعامة السياسية كذراع أيمن لأخيه الشيخ المختار الصغير منذ سنة 1833 ، خلفه على طريقة الانتخاب العائلي في زعامة كنتة منذ سن 1877.(زبادية ، عبد القادر. 1989. ص ص . 92-93) .

وكما هو معلوم ، دخلت منطقة غرب إفريقيا عصر الانحطاط خلال القرنين 17 و 18 ، وما أن حل القرن التاسع عشر حتى ظهرت بتلك المنطقة حركة إحياء قام بها زعماء عن طريق إقامة دول ورافعين لواء الجهاد ، وكان من بينهم **الشيخ عثمان دان فوديو** في بلاد **الهوسا** بنيجيريا و **الشيخ رابح في** تشاد الحالية. (Smith,S. op.cit. p. 79)

5- وكان من نتائج انتشار دعوة ساموري توري ومقاومته للغزاة الفرنسيين ، انتشار الإسلام والحضارة العربية الإسلامية في المناطق الشمالية الإيفوارية الوثنية التي لم يصلها التأثير العربي الإسلامي من غرب إفريقيا.

6

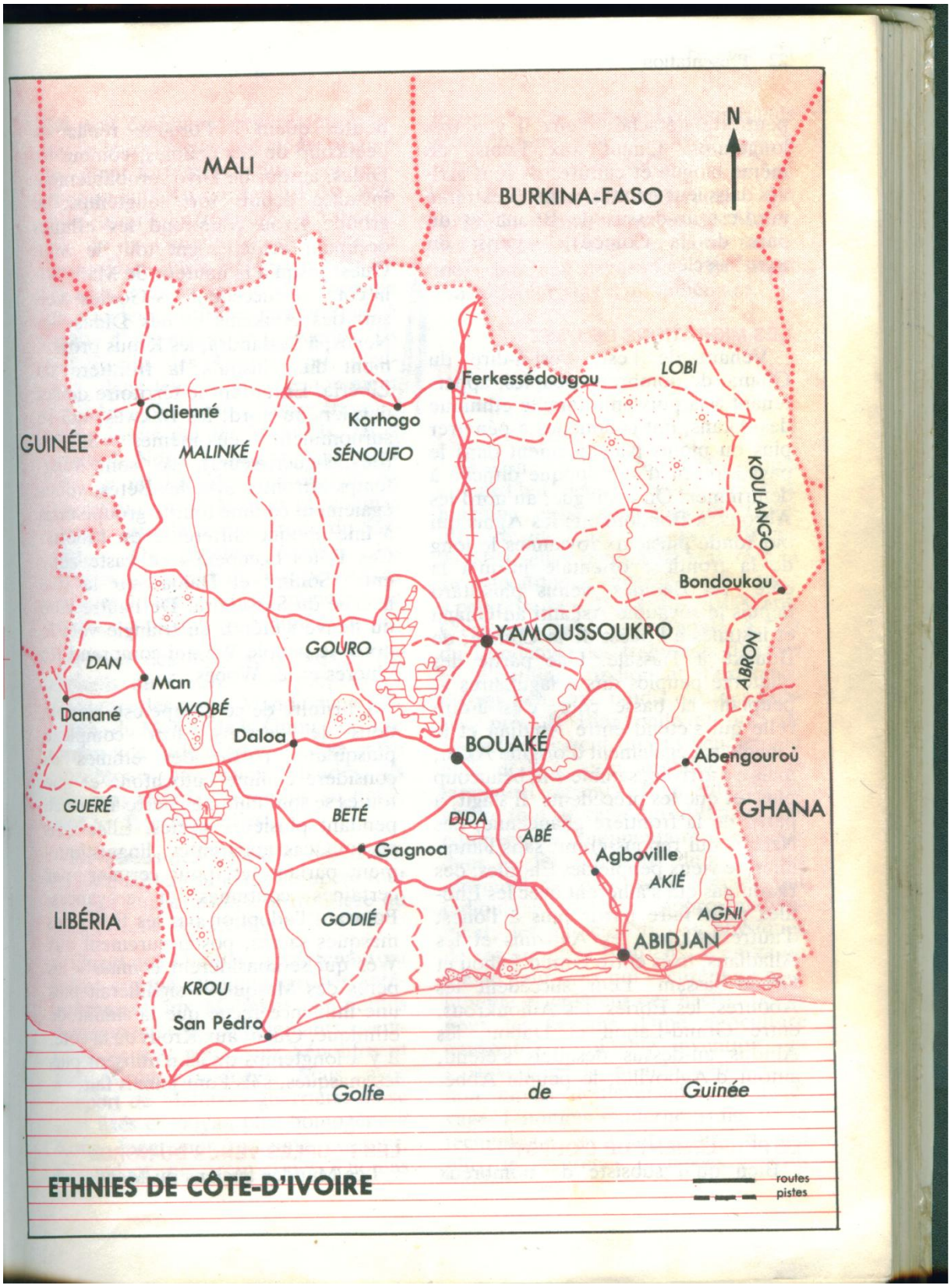

قبائل ساحل العاج

المراجع :

1- الكتب :

1- بوعزيز ، يحي. تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16م إلى مطلع القرن العشرين 20م . دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر ، 2001 .

2- زبادية ، عبد القادر . الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء . المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 .

3 – بكاي ، منصف. دراسات وأبحاث في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء. دار الأمة، الجزائر، 2017.

3 - Arvel, Anne. Cote d'ivoire. Les Editions Arthaud, Paris, 1990.

4 - Cornevin , Robert . Histoire de l'Afrique. Tome I : des origines au XVI siècle . Payot, Paris, 1962. p 421.

5 - Cornevin , M . Histoire de l'Afrique contemporaine. Payot, Paris, 1978. p83.

6 - Gueye , M . Initiatives et résistances africaines en Afrique occidentales de 1880 à 1914 . In Adu Boahen, A . (ed). Histoire générale de l'Afrique , VII, Présence Africaine / Edicef / Unesco , Paris, 1989.

7 - Kenyata , Jomo . Facing Mount Kenya. Presence Africaine , Paris. 1960.

8 - Lugard , Frederick (Lord) . The dual Mandate in British tropical Africa. 5th edition, Frank Cass and Co, London, 1965.

9 - McEvedy , Colin. The Penguin Atlas of African History. Penguin Books, London , 1995. pp 108-114.

10 - Paulme , Denis . Les Civilisations Africaines. Presses Universitaires de France. 1965. pp 63-71 .

11 - Rougerie , Gabriel . La Cote d'ivoire. Presses Universitaires de France, Paris, 1964. p 86 et Arvel , A . Op.cit. pp31-32.

12 - Smith , Stephen . Atlas de l'Afrique. Edition Autrement, Paris, 2005.

2 – المجلات :

1- الشيخ ، طارق عادل :" ، إنقلاب كوت ديفوار....شرخ جديد في غرب إفريقيا ". **السيا سة الدولية** ، العدد 140 ، أفريل 2000،

2 - Benekezouh , Chaabane . « Centralisme et localisme en Afrique noire » In Revue Algérienne des Sciences juridiques, économiques et politiques. Volume XXI , No 4 , Décembre 1984.

3 - Cook, J.J. “Anglo-French Diplomacy and Contraband Army in Colonial Africa. “ 1884-1897. in Africa Studies Review , XIII, 1974.

4 - Marianne no401-402 du 25 décembre 2004. pp 47- 49.

4 – مملكة بوغندا في شرق إفريقيا:

1– المنطلقات التاريخية:

كانت أوغندا تضم ممالك عديدة من أبرزها مملكة بوغندا التي تقع على الحافة الشمالية لبحيرة فيكتوريا أو جنوب غرب أوغندا حاليا في شرق إفريقيا. وكانت لغتها تسمى لوغندا، وهي من لغات البانتو، ويسمى الفرد الذي ينتمي إلى هذه المملكة موغندا. وتقع إلى الشمال منها مملكة انيورو، أما مملكتا أنكولي وتورو، فتقعان في الجهة الغربية من بوغندا بمحاذاة بحيرتي ألبرت وإدوارد. أما مملكة أشولي، فتقع في أقصى الشمال وتعد بحيرة فيكتوريا حدا فاصلا بينها وبين الممالك الأخرى.[16]

وتجدر الإشارة إلى أن مملكة بوغندا كانت في القديم تابعة لمملكة أنيورو لكن منذ القرن الثامن عشر، استقلت عنها بسبب إرادة أهاليها الذين ينحدرون من السلالة النيلية الحامية أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم.وعلى هذا الأساس، ظهر بالمملكة أحد الزعماء الذي بدأ يعمل على فض النزاعات التي تحدث بين الاهالي ثم صار يدير شؤونهمبعد الاتفاق مع زعماء العشائر (وكل عشيرة يمثلها رمزا هو عادة اسم حيوان معين مثل الأسد أو الفهد أو السمك) والزعماء الوثنيين[17] وعليه، صار هذا الزعيم يؤثر في نفوس الأهالي مما أدى إلى تنصيبه ملكا عليهم ولقبوه كاباكا (معناها الملك باللغة المحلية).[18]

---

[16]- Z. Marsh and G.W. Kingsnorth. An Introduction to the History of East Africa. Cambridge University Press, Cambridge, 1961 .pp 118-124. In addition, Encyclopaedia of Third World. Vol III, p 1839.

[17] J.P. Chrétien. L'Afrique des grand lacs. Flammarion, Paris, 2000. Pp 93–94.

[18] – وحسب التاريخ الشفوي، تعددت الروايات حول أصول هذه المملكة، فالمؤرخون يتفقون في مسألة صعوبة تحديد أصول المملكة بالتدقيق. فقبيلة الغاندا تذكران المدعو كينتو Kintu القادم من جبل Elgon رفقة ثلاثة عشر أو أربة عشر عشيرة هو المؤسس الحقيقي للمملكة. فريق آخر من المؤرخين، يرى أن قبائل البانتو كانت وراء تأسيس هذه المملكة. وتذكر مصادر أخرى أن ملكة بوغندا كانت تابعة لإمبراطورية شويزي Chwezi، ولما وصلت هذه الأخيرة إلى مرحلة

خريطة توضح موقع مملكة بوغندا في أوغندا.

المصدر : Wikipedia

الضعف، إنفصلت عنها الكثير من الممالك الصغيرة بما في ذلك مملكة بوغندا. ويرى فريق آخر من الباحثين والمتخصصين في الشؤون البوغندية أن أصول سكان المملكة من أصل بوغندي بحيث يستندون في مبرراتهم إلى أن شويزي والبونيورو قد وجدوهم فعلا في المنطقة.

وتذكر المصار أن منطقة البحيرات الكبرى قد تميزت بتنوع نظمها السياسية. كما أن الكيانات السياسية القائمة يصعب تحديد أصولها، وعليه، يمكن القول إن الفترة الممتدة من القرن 11 م إلى غاية القرن الرابع عشر الميالدي قد شهدت بالتدريج ميلاد ممالك وإمارات في منطقة البحيرات الكبرى. ولتسليط الضوء على كيفية تأسيس هذه الممالك، يرى كل من علماء الأنثروبولوجيا وعلماء اللسانيات أن أصول هذه الممالك من شمال شرق القارة السمراء أي جماعات حامية ونيوليتية احترفت تربية المواشي، هاجرت الى المنطقة وتوسعت عل حساب قبائل البانتو المزارعين وفارضة سيطرتها ونظمها السياسية على المنطقة.[19]

وتجدر الإشارة إلى أن القرن 17 م قد شهد توسع مملكة بوغندا بحيث سيطرت على مناطق شاسعة تقع غرب المملكة أي في المنطقة المعروفة ب غومبا Gomba، إضافة إلى كياغوي Kyagwe وبوسيغا Busoga في الشرق خلال القرن 18 م وبيلميزي وسياغو Bulmezi and Siago. وعليه، يبدو أن هذا التوسع كان على حساب مملكة بونيورو التي دخلا في مرحلة إضطرابات، الأمر الذي جعلها تفقد أيضا منطقة بودو Buddu لصالح مملكة بوغندا. [20]

ومنذ العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، أصبحت مملكة بوغندا تتفوق على باقي الممالك في جميع المجالات بل تفوقت على مملكة بنيورو التي كانت تابعة لها في

[19] Michel Cartry. « Traditions et changement dans le Royaume du Buganda « Revue Française des sciences politiques.Vol 13, 1963, pp 90-91. ونظرا لصعوبة تحديد أصول التركيبة البشرية في منطقة البحيرات الكبرى، فإن سكان المملكة ينحدرون من أصل بانتوي حسب التاريخ الشفوي.

[20] J.P. Chretien. Op.cit, 2000. pp 132-133.

وقت سابق خصوصا بعد اعتلاء الملك موتسا الأول العرش (1875 – 1884).[21]وفي مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، أصبحت مملكة بوغندا أقوى من أي وقت مضى بحيث استخلفت مملكة بونيورو في مسألة حماية إقليمي **بويرا وكوكي Bwara and Koki**. وعلى هذا الأساس، أصبح لمملكة بوغندا موارد جديدة تتجلى في العاج والحديد والماشية، كما أصبحت قواربها تسيطر على بحيرة فيكتوريا، ومن ثمة تنشيط التجارة في المنطقة.[22]

2 – المظاهر السياسية:

تمهيد:

عرف الإنسان الأفريقي السلوك الحضاري قبل أكثر من 35,000 سنة، وإرث القارة في تجربة الحكم والسياسة من أقدم الموروثات السياسية في العالم. لقد سادت أرجاء القارة منظومة متكاملة من المؤسسات التي حكمت أنماط سلوك الإنسان المختلفة، وتبنت المجتمعات الأفريقية أنظمة سياسية واجتماعية وثقافية متعددة، عكست مضامينها الفكر الفلسفي السياسي للجماعة الذي يعبر عن الموروث القبلي والديني، ويعد مؤشرا للقيم الاجتماعية السائدة آنذاك. كما قدمت التجربة مفاهيم فلسفية وقواعد سياسية عامة مشتركة في القارة كلها، وأثبتت نجاحا في تقديم نموذج لكيفية صياغة الفكر السياسي في ظل التنوع البيئي والجغرافي والثقافي والبشرى من خلال نماذج الحكم المتعددة التي قدمتها. لقد أسست القبائل الأفريقية لمفاهيم الحكم المباشر لإدارة شئونها من خلال السلوك الحضاري قبل أكثر

[21] إن المتتبع لتاريخ أوغندا بصفة عامة، وتاريخ مملكة بوغندا بصفة خاصة، يلاحظ أن هذه الأخيرة ارتكزت في قوتها على ما كانت تنتجه من الموز الذي كان بمثابة الغذاء ووسيلة لبناء المساكن خصوصا إذا ما علمنا أن جذوع شجيرات الموز قد استعملت في هذا الصدد. أما مملكة بونيورو Bunyoro ، فقد استمدت قوتها مما كانت تنتجه من الملح، ونظرا لضعف السلطة المركزية في المملكة، انفصلت عنها بعض المناطق لاسيما تورو Toro التي أسست مملكة مستقلة عن مملكة بونيورو، الأمر الذي أدي إلى تجريد مملكة بونيورو من مادة الملح. وتجدر الإشارة إلى أن مملكة بوغندا وإنتاجها للموز بكميات كبيرة قد أحدث ثورة في المجتمع البوغندي من ناحية، وإنتاج كميات كبيرة من السمك من بحيرة فيكتوريا وتوسيع الشبكة التجارية من ناحية أخرى، قد ساهم إلى حد كبير في ارتفاع عدد سكان المملكة. وللمزيد من التفاصيل،أنظر J.Roscoe. The Buganda: An account of their native customs and beliefs. Kessinger Publisher, And Médard. Le royaume du Buganda. Karthala, 2007. pp.48-62.

[22] J.P . Chrétien,op.cit. p 133.

من 35,000 سنة، كما أن إرث القارة في تجربة الحكم والسياسة من أقدم الموروثات السياسية في العالم. لقد سادت أرجاء القارة منظومة متكاملة من المؤسسات التي حكمت أنماط سلوك الإنسان المختلفة.

وفي هذا السياق، يمكننا القول إن المجتمعات الأفريقية تبنت أنظمة سياسية واجتماعية وثقافية متعددة، عكست مضامينها الفكر الفلسفي السياسي للجماعة الذي يعبر عن الموروث القبلي والديني، ويعد مؤشراً للقيم الاجتماعية السائدة آنذاك. كما قدمت التجربة مفاهيم فلسفية وقواعد سياسية عامة مشتركة في القارة كلها، وأثبتت نجاحا في تقديم نموذج لكيفية صياغة الفكر السياسي في ظل التنوع البيئي والجغرافي والثقافي والبشرى من خلال نماذج الحكم المتعددة التي قدمتها. لقد أسست القبائل الأفريقية ومن بينها قبيلة بوغندا لمفاهيم الحكم المباشر لإدارة شئونها من مؤسسات سياسية استحدثتها وطورتها مع المتطلبات الجيو–سياسية التي فرضتها منطقة شرق إفريقيا.

وكما هو معلوم، فإن مملكة بوغندا قد رسمت حدودها في الفترة الممتدة من سنة 1730 إلى غاية سنة .1830 وعلى هذا الأساس تعد فترة حكم الكاباكا أي الملك جونجو **Jjunju** (1790 – 1800) بمثابة مرحلة توسيع رقعة المملكة بحيث تمكن من السيطرة على مملكة بودو Buddu والمناطق المحيطة بها. وعليه، فإن ضم هده المملكة كان يعني السيطرة على منطقة استراتيجية تتمتع بموارد اقتصادية هائلة تتجلى في:

- خصبة أراضيها لزراعة الموز وتربية الماشية.

صور لملوك بوغندا.

المصدر : Wikipedia

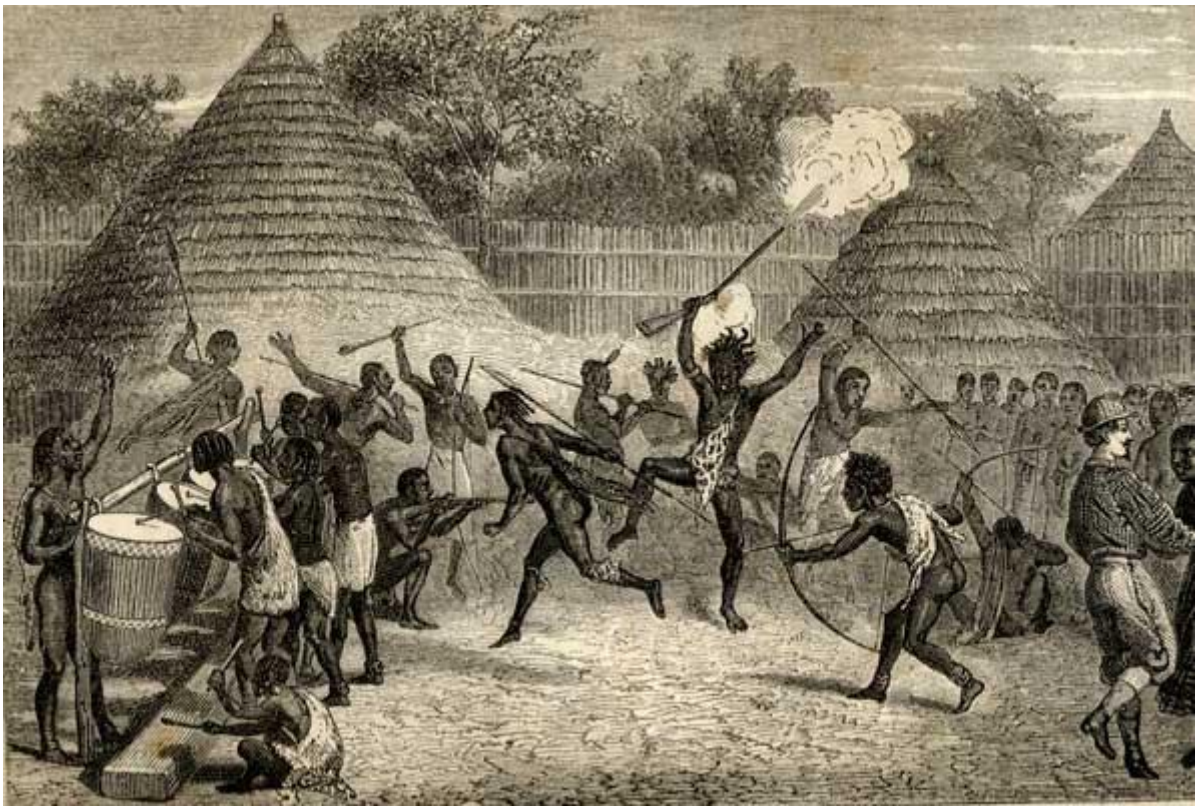

رسم يمثل مظاهر الحياة في مملكة بوغندا.

المصدر: **Afritorial .com**

- اشتهارها بإنتاج نوع نادر من الكتان.

- وفرة إنتاج الحديد.[23]

وغلب على النظام السياسي البوغندي الطابع المركزي بحيث كان نظام الحكم في المملكة نظاما ملكيا وراثيا ينقل من الأب إلى الابن بحيث يوجد على هرم السلطة الملك أو الكاباكا الذي هو المسؤول الأول عن تسيير شؤون المملكة ويساعده في مهامه مجلسا يعرف ب "لوكيكو" **Lukiko** وهو بمثابة البرلمان ويضم رؤساء القبائل والعشائر، [24] ثم يليه مباشرة وزيرا أولا يعرف ب كاتيكورو**Katikoro** الذي كان المسؤول الأول عن الشؤون الإدارية ومكلف بإدارة الأشغال العمومية بما في ذلك بناء الطرق خصوصا إذا ما علمنا أن المملكة كانت تملك شبكة متطورة من الطرق والمسالك ، كما أوكلت للكاتيكورو مهمة المسؤول الأول عن جمع الضرائب.[25]

وحسب بعض المصادر، فإن موكازا **Mukaza** كان أبرز كاتيكورو في تاريخ مملكة بوغندا بحيث شغل المنصب من سنة 1874 م إلى غاية 1880 م. ويبدو أن المناصب العليا والحساسة كان يمنحها الكاباكا للأرستقراطيين الذين تربطهم روابط دموية بالأسرة الحاكمة.[26] ويساعده في مهامه وزراء، الأول مكلف بالمسائل القضائية ويلقب ب "**أوميلاميزي**"، أما الثاني فهو وزير المالية ويلقب ب "أوميوانيكا"، والثالث وزيرا مكلفا بالمسائل العسكرية. وبلإضافة إلى الوزراء، نجد مسؤول يلقب ب "كيمبوجي" بحيث يتولى الإشراف على بعض القطاعات المتعلقة بالتعليم، التجارة والصناعة، أما كيبالي **Kibale** فهو المسؤول عن المراسيم.[27] وبالإضافة إلى هؤلاء المسؤولين، نجد المستشار السياسي والديني

[23] H.Medard. Op.cit. pp 59- 61.

[24] Apolo Kagwa. In M.S.M Kiwanuka, (éd). The Kings of Buganda. East African Publishing House, Nairobi, 1971, pp 62-64.

[25] - Michel Cartry. Op.cit. p 95.

[26] J.P. Chrétien. Op.cit. pp 165-166.

[27]Ibid. p 149.

للملك الذي كان يلقب ب كيمبيغوي Kimbugwe وكيسيكويKisikwe الذي كان بمثابة المسؤول عن بعض المسائل القضائية في البلاد.[28]

وبما أن مملكة بوغندا كانت مقسمة إلى عشر مقاطعات تعرف بssaza سازا ، فكل مقاطعة كان يرأسها حاكم يعرف ب أماشازا Amasaza[29] أوكلت إليه مهمة المحافظة على الأمن وتحقيق العدل ، وكذا معاينة الأشغال العمومية خاصة البنايات المخصصة لموظفي القصر الملكي ، كما يشرف على تنظيم صفوف الجيش وقت الحرب . وكان باسازا مقاطعة " كابادانو" الذي يحتضن القصر الملكي ينوب عن الملك في حكم المملكة أثناء غياب الملك أو في الفترة التي يتم فيها توريث الحكم من الأب إلى الابن. أما أماسازا مقاطعة بوسوجو، فكانت تسند إليه مهمة التكفل بتربية أبناء الملك الذين كان يتحتم عليهم الإقامة في مقاطعة بوسوجو، وفي المقابل كان باسازا مقاطعة بوسيدا يشرف على المقابر.[30]

والجدير بالذكر أن منصب باسازا يعين من قبل الملك وله مقران، مقر في العاصمة ومقر في المقاطعة التي يشرف عليها. وتتجلى مهام باسازا [31] أو سازا فيما يلي :

1 – الباسازا مكلفون بتسهيل مهمة مبعوثي الكاباكا أو الملك في مسألة جمع الضرائب.

2 – مكلفون بتزويد الجيش البوغندي بالمقاتلين وباليد العاملة وتسخيرها لاغراض المنفعة العامة.

3 – يسهرون على تطبيق العدالة في المملكة.

4 – يعينون من قبل الكاباكا.

---

[28]Ibid.

[29] H.Medard.Op.cit. pp 284-285.

[30]Semakula Kiwanuka A history of Buganda: From the foundation of the kingdom to 1900. Longman, London. pp 111-126.

[31] تجدر الإشارة إلى أن البا ba في اللغة السواحلية هو دلالة على الجمع، وعليه يستحسن استعمال باسازا عوض سازا.

5 – للكاباكا الحق في تحويل أو إنهاء مهام الباسازا.

6 –للكاباكا الحق في إعدامهم إذا ثبت تورطهم في مسائل تعارض مع قوانين المملكة.

7 – يوزع الكاباكا عليهم قطع من الأراضي كمكافأة على ولائهم له. [32]

ويأتي بعد الباسازا في سلم الحكم، ما يعرف ب "جومبولالا" **Gombolala**، وعددهم ستة في كل مقاطعة، وينتمون إلى صغار النبلاء ويحكمون المراكز الفرعية التابعة للمقاطعات. كما يتم تعيينهم من قبل الملك بعد استشارة الباسازا ويحضرون الجلسات التي يعقدها الملك من حين لآخر.[33]

وينقسم كل فرع من فروع المقاطعات إلى أقسام صغيرة تسمى "ميريكا" وحجمها يعادل حجم قرية، ويتراوح عدد سكانها من مائة إلى ألف نسمة. ووصل عدد الميريكا مع نهاية القرن التاسع عشر حوالي 1328 ميريكا يدير شؤونها حاكم يعرف ب "**موتونغالا**" ولديه مندوبا خاصا لدى حكومة الكاباكا. وبالإضافة إلى الميريكا، تنتشر في مملكة بوغندا العشائر التي يحكمها حاكم يعرف عادة ب "موغندا" **Muganda** الذي يحضر إلى بلاط الكاباكا لمناقشة القضايا الهامة. ويساعد الموغندا في مهامه مسؤولين، أحدهما مكلف بقضايا العدل، وثانيهما رجل دين مكلف بالمسائل التي تحص الحياة اليومية. والموغندا يلقى احترام وتقدير كبيرين من قبل عامة الشعب.

وتجدر الإشارة إلى أن النظام السياسي في مملكة بوعندا ظل قائما حتى في فترة التواجد البريطاني في البلاد. وكان تطبيق العدل وتوفير الأمن من أهم المسؤوليات الملقاة على عاتق الموظفين في القصر الملكي أو خارجه. والنظام السياسي في بوغندا تسيره حزمة من

---

[32] - Michel Cartry. Op.cit. p 96.

[33] رالف لنتون. شجرة الحضارة، ج3، ترجمة: محمد سويدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1990. ص 129.

القوانين يعدلها الملك من حين إلى آخر، أما نظام القضاء فكان بيد النبلاء بحيث يتواجد في كل مقاطعة قاض يحكم الناس في منازعاتهم. كما تستأنف الاحكام من المحاكم الابتدائية غلى المحاكم العليا حتى وصولها إلى الملك للفصل فيها.

وفي هذا السياق، تنوعت العقوبات المفروضة على مرتكبي الجرائم، وعادة ما كان القضاة يلجؤون إلى التحكيم الكهنوتي مستخدمين التعذيب في حالة عدم ثبوت الأدلة القاطعة، ومن ثمة انتزاع الاعترافات. وتتجلى العقوبة الشائعة للجرائم الصغيرة في قطع بعض أجزاء الجسم كبتر أحد الأعضاء مثلا. أما الذين تثبت إدانتهم في الجرائم الكبيرة، فكانوا في غالب الأحيان يقدمون كقرابين بشرية.

أما بخصوص الأسرة المالكة، فكانت تتكون من الملك والملكة الوالدة والملكة الأخت [34] وعلى أي إنسان الاقتراب منه السجود أو الانحناء له قبل الشروع في التحدث معه. وكان الملك يملك عدة زوجات يقدمن له كهدايا، كما كانت أرفعهن شانا هي التي تختار لتكون زوجة للملك.

[34] J, Roscoe. Op.cit p 187.

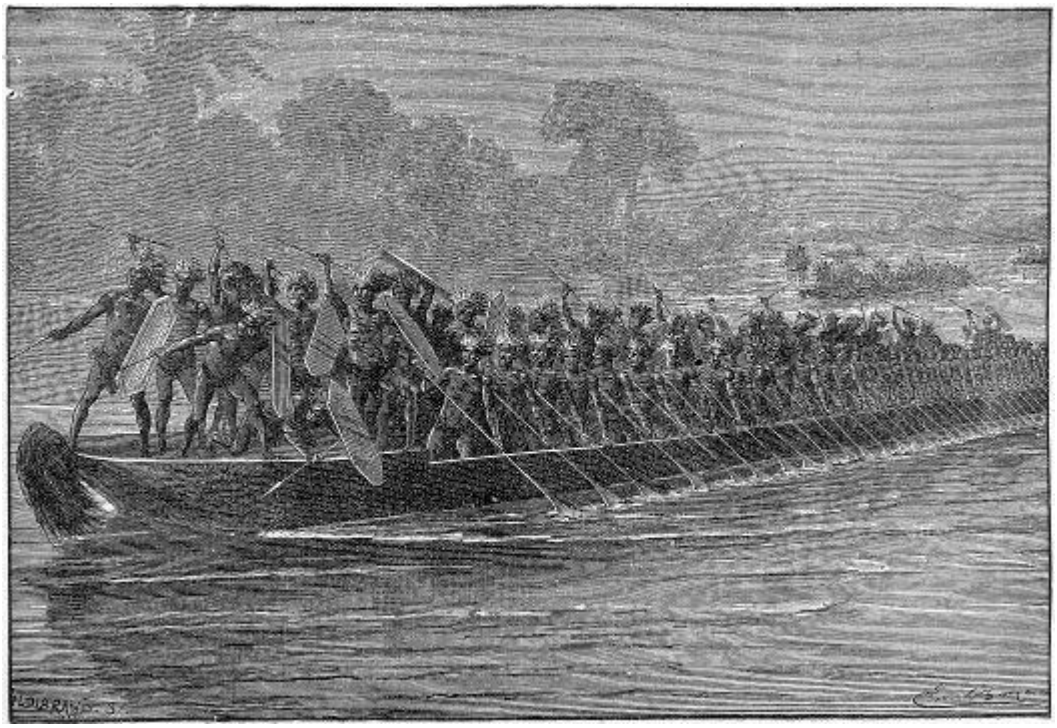

قوارب جيش مملكة بوغندا

المصدر: Wikipedia

وكانت زوجات الملك تعشن في القصر الملكي وتخضعن لرقابة شديدة لضمان شرعية الأولاد. هؤلاء الأولاد يسلمون لحاكم مقاطعة بوسوجا بمجرد انتهاء فترة الرضاعة، ويتولى تربيتهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإبن الأكبر لا يسمح له بوراثة العرش لأنه يشارك الحاكم أو الباسازا في تربية إخوانه بينما تكون الإبنة الأكبر مسؤولة عن تربية إخوتها البنات.

وعندما يتوفى الملك، يعقد اجتماع عاجل يحضره الوزراء والحكام الأوصياء وأكبر أبناء الملك لتعيين خليفة للملك، ثم يعلنون لكافة الشعب موت الملك ويتم إطفاء النار المقدسة

التي كانت مشتعلة طوال فترة حكم الملك. كما تقرع الطبول الخاصة بموت الملك ويشرع في الإعداد لدفن الملك بتحنيط جسده ثم يحمل للمبنى الذي أعد ليكون قبرا له.[35]

وقبل تنصيب الملك أو الكاباكا الجديد، تقوم أمه بتسيير شؤون المملكة لمدة ستة أشهر لأن الملك الجديد طوال هذه الفترة يكون مرتديا ثياب الحداد على أبيه ولا يحق له التدخل في شؤون المملكة. وبعد انقضاء هذه المدة، تقام حفلة التتويج بأداء الملك لليمين قبل توليه السلطة.[36]

أخيرا، يمكننا القول أن تبني مملكة بوغندا للنظام السياسي المركزي يبرره إرادة الإدارة البوغندية في تحقيق الأهداف التالية:

- تقسيم المملكة إلى مقاطعات معناه التمكن من مراقبة واستغلال موارد البلاد.
- ضمان ولاء حكام المحافظات للسلطة المركزية خصوصا إدا ما علمنا أن هؤلاء الحكام كانوا أمراء أو من طبقة النبلاء.

3 – المظاهر الإقتصادية:

كانت مملكة بوغندا فضاء زراعيا متميزا عن سائر ممالك البحيرات الكبرى نظرا لخصبة أراضيها وتوفر المياه بفعل كمية التساقط الهائلة.

وغلب على نظام مملكة بوغندا الاقتصادي الطابع التجاري بحيث اشتهرت المنطقة بتجارة العاج وريش النعام اللذين كانا يصدران للمناطق المجاورة للمملكة، وفي المقابل تستورد المملكة السلع التي تتوافد من الشرق عن طريق التجار العرب والسواحليين الذين بدأوا يتوافدون على المنطقة منذ نهاية القرن الثامن عشر عن طريق جزيرة زنجبار. وعليه، أصبح

[35]Roscoe, op.cit.

[36] M.Southwold. "Succession to the throne of Buganda" in Goody J. Succession to high Office.Cambridge University Press, Cambridge, 1966. pp 82-126.

تمتين العلاقات بين بوغندا وزنجبار بمثابة إحدى الركائز الأساسية التي اعتمها الكاباكا موتسا الأول في مسألة تنشيط سياسته الخارجية.[37]

وقدرت بعض المصادر عدد القوارب التي استعملها البوغنديون في بحيرة فيكتوريا لنقل المغامر الألماني كارل بيترس ب 93 قارب وألفين رجل.[38]

وعلى هذا الأساس، تم عقد أول معاهدة تجارية بين التجار العرب ونظرائهم البوغنديين سنة 1852، ترتب عنها استقرار جالية عربية على ضفاف البحيرات ووسعت نشاطها التجاري مع بعض القبائل الأوغندية مثل النيامويزي.

والجدير بالذكر أن أهم طريق كان يسلكه التجار العرب للوصول إلى مملكة بوغندا كان عبر طريق طابورا (تقع بتانزانيا اليوم) مرورا بكاراغوي وكاغيرا أين ينقسم بها الطريق إلى شقين. فيتجه الطريق الأول نحو بانيورو عبر السهل الشرقي لبحيرة أنكولي ويستمر عبر ضفة بحيرة فيكتوريا وصولا إلى مملكة بوغندا. أما الطريق الثاني، الذي ينطلق كذلك من كاغيرا منحدرا نحو قبيلة التوتسي في رواندا أين يتوافد عليها التجار البوغنديين قصد جلب السلع لتسويقها في مملكة بوغندا.

وتذكر المصادر أن تجارة النسيج كانت حكرا على الملكين سونا (1825–1856) وموتيسا الأول (1856–1884) في الفترة الممتدة من 1832 إلى غاية 1884. كما تم إنشاء مستودعات خاصة بها قصد تسويقها خارج المملكة. وازدهرت التجارة بالمملكة ازدهارا كبيرا عندما توافد على المملكة التجار العرب والأوربيين الذين أبرموا اتفاقيات تجارية لاسيما الاتفاقية التي أبرمها المكتشف سبيك مع التجار البوغنديين سنة 1862 أو تلك التي أبرمها التجار المصريين مع الملك موتيسا الأول سنة 1856 لتنشيط التجارة في المنطقة.

[37]H. Medard. Op.cit. pp. 190-191.
[38]Carl peters. New light on dark Africa. Ward,Lock and co, London, 1891. P 460.

وكانت جل المبادلات التجارية تتم باستعمال وحدة نقدية تعرف بالودع، كما تم استعمال المكاييل والمقاييس التي كانت لها نظم موحدة عملت مملكة بوغندا على تحديدها.

أما في الجانب المالي، لاحظنا أن مملكة بوغندا لم تهمل مسالة فرض الضرائب بالرغم من أنها لم تكن منتظمة. وكانت تفرض على العامة عندما تفرغ الخزينة ويعين لها ستة موظفين في كل مقاطعة يعملون على جبايتها، كل واحد من هؤلاء الموظفين الستة يتم تعيينهم من قبل الملك، أخت الملك، الملكة الوالدة، الوزير الأول، أمين المفتشين وحاكم المقاطعة. وكان الجباة هم من يحدد قيمة الضريبة التي تدفعها المقاطعة على أساس عدد البيوت، كما أن الضريبة تدفع عينا من أصل جنسها. والجباة يسمحون بمدة شهرين بين تقرير الضريبة وجمعها حتى يعطوا للأهالي الوقت الكافي لجمع السلع اللازمة للدفع. وعندما تجمع الضرائب يتحصل الملك أو الكاباكا على النصف ويقسم الباقي على الملكة الوالدة والملكة الأخت والكاتيكورو.وتذكر بعض المصادرانالقيمة التي يتحصل عليها الكاب كامن جمع الضرائب تراوحت من 10% إلى 50%.[39] وكانت الضرائب تفرض أساسا على الماشية والمنسوجات والموز والذرى والجعة والفول السوداني[40].

4 – المظاهر الاجتماعية:

شهدت مملكة بوغندا تنظيما اجتماعيا متميزا عبر القوانين المدنية التي كان يصدرها الملك ويتم تطبيقها عن طريق مراقبيه الدوريين الذين يلقبون ب **'شيغا' Chiga.**

والجدير بالذكر أن المجتمع البوغندي ظل محافظا على وحدته وولائه للملك أو الكاباكا حتى بعد التواجد البريطاني في البلاد من جهة، وتميزه على غرار باقي المجتمعات الإفريقية

[39] H. Medard. Op.cit. pp. 265- 266.

[40] Apolo Kagwa. Basekabaka be Buganda.Third edition, The Sheldon Press, London, 1927. P 139.

بميزة الإثنية القبلية من جهة أخرى. فكل فبيلة بقيت محافظة على عاداتها وتقاليدها ونمط معيشتها.

وينقسم المجتمع البوغندي إلى طبقات اجتماعية تضم في المرتبة الأولى افراد العائلة المالكة، تليها في المرتبة الثانية الطبقة العامة ثم طبقة العبيد في المرتبة الأخيرة. وهؤلاء العبيد في غالب الأحيان هم من أسرى الحرب ومن الأطفال الذين يرهنهم الأباء كضمان لتسديد الديون. وعلى العموم، كان العبيد يعاملون معاملة حسنة حصوصا إذا ما علمنا أن النساء تستعدن حريتهن بمجرد أن تنجبن أطفالا من أسيادهن لكن الرجال من العبيد في بعض الأحيان يقدمون كقرابين بشرية، وذلك لكون الطقوس الدينية في مملكة بوغندا تتطلب ذلك.

ويغلب على الطبقة العامة الطابع العشائري بحيث تنتسب كل عشيرة إلى فرع الأب ويرأسها زعيم يختاره مجلس الأعيان ويتزوج معظم أفرادها من خارج العشيرة. كما تنتشر بين صفوفهم ظاهرة تعدد الزوجات لأن ذلك كان مظهرا من مظاهر أبداء هيبتهم.[41]

ومما هو جدير بالذكر أن المجتمع البوغندي يغلب عليه الطابع الريفي لذلك نلاحظ أن أفراده يفضلون حرفة الزراعة وتربية المواشي إلى جانب الصيد لسد حاجياتهم اليومية خصوصا إذا ما علمنا أنها كانت من المصادر الرئيسية لغذائهم اليومي. وحرفة تربية الماشية عندهم هي حكرا على العنصر الحامي أو ما يسمون ب " الواهيما" أو الهما **Hima** الذين ينحدرون من السلالة الحامية ويتكلمون لغة البانتو. يمتازون بطول القامة وضيق الأنف مع بروز الفك. أما السكان الأصليين فيمارسون حرفة الزراعة والحرف اليدوية. وتلعب الماشية دورا كبيرا في المجتمع البوغندي لأن عدد رؤوس الماشية التي يمتلكه الفرد هي التي تحدد لصاحبها المكانة المرموقة في وسط المجتمع، كما تشكل المهر الذي يقدمه الزوج إلى

[41] H.Medard.Op.cit. pp 227-231.

عائلةالزوجة. وعلى هذا الأساس، فإن تعدد الزوجات في المجتمع البوغندي يحدد بعدد امتلاك رؤوس الماشية التي يستطيع ان يقدمها الزوج.[42]

أما خدمة الأرض، فتتم عن طريق اتفاقيات تبرم ما بين المزارعين وأصحاب الأرض بحيث يدفع المزارع لصاحب الأرض قسما من المحصول مقابل استغلالها. ويلاحظ أن المرأة تشارك الرجل في زراعة الأرض، كما يمكن للمزارع ترك الأرض متى شاء.

ويعتبر الموز الوجبة المفضلة لدى المجتمع البوغندي بحيث يغلى في الماء ثم يخلط ليصبح عجينة، وهذه العجينة هي العنصر الأساسي في الوجبة اليومية، فهي بذلك تشبه وجبة الأرز في الشرق الأقصى. كما يتميز أسلوب لباس البوغنديين عن غيره من الشعوب الإفريقية بالحرص الشديد على تغطية الجسم كله بالملابس. وبالرغم من أن الأطفال قبل بلوغهم سن المراهقة كانوا عادة عراة إلا انهم عندما يبلغون سن الرشد يرتدون ملابس أكثر من النساء، وكانت عادة تتكون من منزر يلفونه حول الوسط إلى جانب قميص طويل يشبه العباءة يضعونه فوق القميص الأول.

وتتميز مساكن البوغنديين بالشكل الدائري أو المخروطي والمغطاة بقش الأشجار، ومداخلها المحمية برواق صغير مغطى. ويحبذ الناس أن تكون مساكنهم في الرحاب الواسعة داخل المزارع وتحيط بها أشجار الموز.[43]

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن مسكن الملك أو الكاباكا كان يختلف عن بقية المساكن في المملكة بحيث يكمن الاختلاف في طول وعرض المسكن. وعلى هذا الأساس، يذكر أحد الأباء البيض خلال وصفه لقصر الملك أنه يمكن معرفة القصر عن طريق علوه الذي يجتاز العشرين مترا، وشكله الدائري.[44]

---

[42] Ibid. pp 62- 65.
[43] J.P. Chretien. op.cit. p 42.
[44] Ibid.

وكانت مملكة بوغندا تمتلك شبكة من الطرق الجميلة يفوق اتساع الواحدة منها الاربع أمتار، ويشرف على صيانتها حاكم العشيرة. وعملت هذه الشبكة من الطرقات على تحسين ظروف تحركات الجند ونقل البضائع المصنوعة محليا، كما تنتشر في مملكة بوغندا الأسواق الأسبوعية أين يجلب إليها الفلاحون منتجاتهم من أجل تسويقها، ويشرف على كل سوق موظف أوكلت إليه مهمة المحافظة على النظام داخل السوق، إضافة إلى جمع الضرائب التي كانت تحددها المملكة.

أما إذا انتقلنا إلى الجانب الديني أو الروحي، فنلاحظ أن مملكة بوغندا كانت على غرار سائر المجتمعات الإفريقية تتميز بعبادة ظواهر ما فوق الطبيعة، وكان السحر يمارس بشكل واسع، إضافة إلى وجود الكهنة في المعابد الذين يعملون على الإنباء بالغيب عن طريق الوحي. وعلى هذا الأساس، كانت الديانة في مملكة بوغندا تدور حول عبادة الموتى، والاعتقاد أن أرواح الموتى تعود بعد أعوام وتتجسد في الاطفال حديثي الولادة.وعليه، فهم يسمون هؤلاء الاطفال الجدد بأسماء الذين ماتوا، كما تتجلى طقوسهم الدينية في تقديم القرابين،والآلهة العظيمة عند البوغنديين هي روح زعيم العشيرة،كما عبد البوغنديون الظواهر الطبيعية منها إلاه كان يعرف عندهم باسم موكاسا الذي ارتبط ببحيرة فيكتوريا وكانت مهمته تكمن في توفير الأسماك بالبحيرة والتحكم في العواصف. ولكل إلاه معبدا خاصا تقوم هيئة من الكهنة بالإشراف عليه ولكن أسوء ما في ديانة مملكة بوغندا هو انتشار ظاهرة تقديم القرابين البشرية للتغلب عن ظاهرة الخوف من حدوث كوارث طبيعية. وعليه، كان المئات من العبيد يقدمون كقرابين.[45]

وإلى جانب تلك الديانات التي ذكرناها، تبنى البوغنديون الديانة الإسلامية التي دخلت المنطقة عن طريق التجار العرب الذين كانوا يجوبون منطقة شرق إفريقيا لأهداف

[45]H.Medard.Op.cit. pp 325- 329.

تجارية.وعليه، اعتنق الكثير من البوغنديين الديانة الإسلامية لأن الملك موتيسا الأول كان متعاطفا مع هذه الديانة خصوصا بعد ظهور المبشرين المسيحيين في المنطقة.

وتذكر المصادر أن العلاقات توطدت بين الملك والتجار العرب بحيث توافد الكثير من هؤلاء إلى مملكة بوغندا بعد تلقيهم كل التسهيلات لممارسة التجارة في المملكة.

والجدير بالذكر أنه مع منتصف القرن التاسع عشر وخصوصاً في عصر الدولة البوسعيدية راح الإسلام ينتشر لأول مرة في مناطق جديدة في أوغندا وأعالي نهر الكونغو ورواندا وبوروندي فضلا عن المناطق الداخلية في تنجانيقا وخصوصا منذ أن أصبحت زنجبار مركز إشعاع إسلامي وحضاري منذ أن اتخذها السيد سعيد بن سلطان عاصمة الحكم العماني في شرق إفريقيا سنة 1832م.

كما وسع عدد من التجار العرب في أعمالهم التجارية إلى الداخل الإفريقي، وأقاموا أول اتصال لهم مع الشعوب هناك، وكان أحمد بن إبراهيم العامري من أوائل التجار العرب الذين وصلوا إلى مملكة بوغندا، إذ جاء إليها من جزيرة زنجبار في حدود سنة 1844م، سالكًا طريقًا عبر مملكة كاراجوي، التي تقع جنوب مملكة بوغندا إلى الغرب من بحيرة فكتوريا.[46] وقد عمل أحمد بن إبراهيم العامري منذ الأيام الأولى لوصوله على نشر مفاهيم الدين الإسلامي الحنيف، فضلا عن ممارسته للنشاط التجاري الدي نجح فيه.كما إ يعود إليه الفضل في تعليم الإسلام لملك بوغندا صونا الذي رحب به وبالتجار العرب.[47]

[46] Henri Medard. Op.cit.p127.

[47] For full details, see J.M. Gray. "Ahmed bin Ibrahim – The first Arab to reach Buganda" **Uganda Journal**, September 1947, vol II, no 2, pp 80-97.

وأقام العرب في مملكة بوغندا مراكز تجارية ومساكن، ونجحوا في نشر الدين الإسلامي فاعتنقه الكثير ممن كانوا وثنيين قبل ذلك، كما سارع التجار العُمانيون إلى تعليم اللغة العربية، وكان ذلك قبل وصول البعثات التبشيرية المسيحية.[48]

وتستدعي الضرورة أن نشير إلى أن الملك موتيسا الأول بذل قصارى جهده لتعليم الإسلام ودعوة شعبه إلى الإسلام، وإلزامهم بشريعته وأحكامه وتعاليمه؛ مماحفز الكثير إلى الإقبال على الإسلام، بل شجع الدعاة من العرَب والسواحليين على الاستمرار بالدعوة إلى الإسلام.

أما المسيحية فقد انتشرت هي الأخرى في مملكة بوغندا، لكنها ارتبطت بالاستعمار في انتشارها الأخير الذي اتخذها وسيلة من أدواته للتغيير الاجتماعي للشعوب الإفريقية؛ حيث استطاع أن يحوّل بعض القبائل الإفريقية من الوثنية إلى المسيحية عبر المدارس التي أقامتها البعثات التبشيرية المسيحية وكانت أوغندا مثالا لدلك.

[48] يتفق الكثير من المؤرخين على أن الإسلام أول الأديان السماوية وصولا إلى أوغندا، وأنه سبق المسيحية إلى هذه المنطقة بنحو ثلاثين سنة على الأقل، ويقدر زمن وصول الإسلام إلى أوغندا ما بين عام 1844 و1852م، كما تذكر المصادر ان أحمد بن إبراهيم العامري هو أول المسلمين وصولا إلى هذه البلاد؛ وذلك لما اشتهر به من قوة في التأثير على شخصية الملك صونا والحد من تماديه بسفك دماء الأبرياء من رعيته.

خاتمة:

ساهمت عدة عوامل خارجية في توقف مسيرة مملكة بوغندا نحو تعزيز دعائم كيانها الوطني في القارة السمراء تجلت في ظهور التنافس الإمبريالي الأوربي على شرق.

ومما يجدر ذكره أن الثمانينات من القرن 19م شهدت تنافسا حادا بين ألمانيا وبريطانيا للسيطرة على شرق إفريقيا. وبين نهاية سنة 1884 وبداية سنة 1885، قرر **فون أوتو بسمارك** المستشار الألماني عقد مؤتمر للدول الاستعمارية ببرلين لتحديد مناطق النفوذ بإفريقيا من جهة، ولتجنب الاصطدامات بين القوى الإمبريالية من جهة أخرى. وعلى هذا الأساس، طالبت الإمبريالية الألمانية أن يكون لها نصيبا بغرب إفريقيا وشرقها، إضافة إلى جنوب غرب إفريقيا (ناميبيا اليوم).[49]

وتجدر الإشارة أن كارل بيترس توغل من تنجانيقا إلى داخل الأراضي الأوغندية ليعلن سيطرة بلاده على الجزء الأكبر من أوغندا، الأمر الدي جعل الحكومة البريطانية تدخل مسرح الأحداث قصد أن يكون لها نصيبا من هذا التنافس في المنطقة. وعليه، دخل الطرفان في مفاوضات كللت بإبرام اتفاقيتين سنتي1886 و1890، آلت بموجبها أوغندا إلى التاج البريطاني.

وعلى ضوء الاتفاقية الأخيرة أي اتفاقية سنة 1890، نستنتج أيضا أن كل المناطق الواقعة بين الموزمبيق جنوبا ومناطق النفوذ البريطانية شمالا أصبحت تعرف **بشرق إفريقيا الألمانية**. أما المناطق التي كانت تسيطر عليها شركة شرق إفريقيا البريطانية، فقد أصبحت تعرف **بمحمية شرق إفريقيا البريطانية** والتي قسمت لاحقا إلى محميات **أوغندا** ومستعمرة كينيا.

وقد واجهت شركة شرق إفريقيا البريطانية مشاكل كثيرة وهي تحاول تحقيق الأهداف الإمبريالية وتثبيت نفوذها على المنطقة الشاسعة الممتدة من الشريط الساحلي المطل على المحيط الهندي وحتى حدود الكونغو. وكانت أهم المشاكل تلك المتعلقة بنقص الموارد المالية. وعليه، حث اللورد **لوغارد** الحكومة البريطانية على استلام زمام الأمور من الشركة لدعم النفوذ البريطاني في شرق إفريقيا لا سيما بأوغندا. وتبعا لاقتراحات اللورد **لوغارد**، أرسلت الحكومة البريطانية **السير جيرالد بورتال**Portal القنصل العام البريطاني في زنجبار لزيارة أوغندا وإعداد تقرير مفصل عن الأوضاع هناك.[50] وتبعا للتقرير المشار إليه أعلاه، تحملت الحكومة البريطانية مسؤولياتها الكاملة. وفي الفاتح من شهر أفريل 1893، وصل بورتال إلى أوغندا ووضع العلم البريطاني في **كامبالا** بدلا من علم شركة شرق إفريقيا

[49] منصف بكاي. أضواء على تاريخ إفريقيا. دار السبيل للنشر والتوزيع،الجزائر،2009. ص 287.

[50] Zoe Marsh and GW.Kingsnorth. Op.cit. pp 103-104.

البريطانية معلنا عن الحماية البريطانية على أوغندا وأهمية موقعها الاستراتيجي في السيطرة على منابع النيل.[51] كما أكد البرلمان البريطاني رسميا هذا الإعلان في أوت سنة 1894.

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور الكبير الذي **لعبه السير فريديريك لوغارد** في تكريس الهيمنة البريطانية على كامل التراب الأوغندي. ففي سنة 1891،وقع لوغارد مع ممثلي الملك **نتار** ملك **نكور** على اتفاقية تكرس الهيمنة البريطانية على هذه المنطقة، كما أعاد على عرش **تورو** كازاغاما الذي أزاحه **كاباريغا** على العرش من قبل. ومنح مبلغ عشرة آلاف جنيه لفرنسا كتعويض على طرد بعض البعثات التبشيرية المسيحية الفرنسية. ونظرا للمتاعب المالية التي كانت تعاني منها شركة شرق إفريقيا البريطانية، تحرك اللوبي الإمبريالي في لندن بزعامة **اللورد روزبري** الذي أصبح رئيسا للوزراء خلفا **للورد غلادستون** في مارس 1894 مدعما بالغرف التجارية والبعثات التبشيرية المسيحية البروتستنتية قصد إنهاء دور الشركة في أوغندا ووجوب تحمل الحكومة البريطانية مسؤولية إدارة هذا الجزء من شرق إفريقيا.[52]

وكانت مملكة **بوغندا** تمثل إحدى المناطق الأربعة في البلاد من جهة، ويسكنها شعب يعرف بغاندا **Ganda** الذي يمثل أغلبية نسبية من سكان هذا الجزء من شرق إفريقيا من جهة أخرى. ويبدو أن تطبيق الإنجليز لسياسة فرق تسد قد يبرز لنا جليا انحياز السلطات الاستعمارية البريطانية لمملكة بوغندا طيلة خمسين (50) سنة باعتبارها أكبر المجموعات الإثنية في البلاد.

وكما هو معلوم،فإن الإمبرياليين الإنجليز قد اشتهروا بانتهاجهم سياسة فرق تسد التي تقوم على أساس دعم قبيلة معينة ومحاباتها على حساب قبائل الأخرى، أو شق القبيلة الواحدة من خلال تدعيم فرع منها على حساب بقية الفروع الأخرى.

وكانت مملكة بوغندا تتمتع باستقلال ذاتي بموجب الاتفاق المبرم مع السلطات الاستعمارية البريطانية سنة 1900،ومركزا تجاريا هاما في البلاد.وتميز شعب **غاندا** الذي

---

[51] Ibid.

[52] وللمزيد من التفاصيل أنظر J.P. Chretien. op.cit. pp 193-194.

تعرض لعملية تمسيح واسعة النطاق من قبل البعثات التبشيرية المسيحية سواء أكانت بروتستنتية أو كاثوليكية، من القبائل البانتوية الأكثر تقدما مقارنة بالقبائل البنتوية الأخرى المتمركزة في غرب البلاد مثل قبائل بونيورو **Bunyoro**،**أنكولي Ankole** أو تورو **Toro**[53] أو تلك القبائل المتمركزة في شرق البلاد التي نذكر منها : سوغا وجيزو **Soga وGisu** أو القبائل الأخرى غير البانتوية المتمركزة في شمال البلاد أو شرقها كقبائل **لونغو ، أشولي ، لوغبارا** أو **تيسو.**[54]

وقد تميزت ردود الفعل الأولى للتواجد الإمبريالي البريطاني في البلاد بتأسيس جمعيات شبانية رفضت الأمر الواقع نذكر من أهمها **جمعية باغندا الفتية YoungBaganda Association** [55] التي يرجع تاريخ تأسيسها إلى سنة 1900 عندما تم التوصل إلى اتفاق بين السلطات الاستعمارية البريطانية ومملكة بوغندا حول مكانة هذه المملكة في ظل التواجد البريطاني في البلاد. وعليه، ظهر تذمر في أوساط الشبان الأوغنديين الذين رأوا في تغيير تسيير شؤون المملكة فقدان نوع من السيادة خصوصا إذا ما علمنا أن السلطات الاستعمارية البريطانية أصبح لها دورا في مسألة تعيين زعماء العشائر التقليديين من جهة، ومن جهة أخرى رأى هؤلاء الشباب أن أولئك الزعماء قد أصبحوا موظفين لدى الإدارة الكولونيالية.[56]

وتزعم الجمعية المشار إليها أعلاه مجموعة من الشباب كان أبرزهم المدعو **سنتونغو** Z.K Sentongoالذي وضع نصب أعينه تنمية بلاده بما في ذلك تطوير التعليم في البلاد. كما نددت الجمعية بتصرفات زعماء مملكة بوغندا الذين كانوا يسجنون الأشخاص بدون محاكمة، إضافة إلى التنديد ببعض الإجراءات التعسفية التي وضعتها السلطات الاستعمارية البريطانية في المسائل الاقتصادية كتلك الإجراءات التي تتعلق بمسألة التجارة في مجال القطن. ولم تتوقف مطالب الجمعية عند هذا الحد بل هاجمت الجالية الهندية في

---

[53] منصف بكاي. مرجع سابق. ص 297.

[54] Encyclopaedia of Third World. Vol III, p 1839.

[55] ظهرت هذه الجمعية تزامنا مع أبرام اتفاقية 1900 وكرد فعل على مضمونها . أنظر **John** Iliffe (trad. Jean-Paul Mourlon), *Les Africains, histoire d'un continent, Flammarion, 2016, p. 467.*

[56] E.S.A. Odhiambo. La politique et le Nationalisme en Afrique Orientale. In Histoire générale de l'Afrique. VII. L'Afrique sous domination coloniale. 1880- 1935.Présence Africaine / Edicef /Unesco, Paris, 1989. p. 447.

الصحافة عن طريق زعيمها سنتونغو سنة 1921 عندما نشر مقالا بصحيفة Uganda» «**Herald**يهاجم فيه الهنود ويتهمهم باستغلال الأهالي الأفارقة.[57]

وفي سنة 1922، بدأت الجمعية تهاجم النظام الملكي المطبق ببوغندا، وكذا **الكاباكا (الملك)** وتنادي بإقامة النظام الجمهوري.وعليه، أقدم كل من **يواسي بايتو YowasiPaito ،جوشوا نالوما Joswa Nalumaو يوسف موكاس Yusuf Mukasa**، وهم من أبرز أعضاء الجمعية على مهاجمة الكاباكا واتهامه بالتقصير في تسيير شؤون المملكة . وكان رد فعل الكاباكا وبرلمانه **(لوكيكو)** عنيفا بحيث أقدم على سجن أبرز أعضاء الجمعية في جويلية سنة 1922، الأمر الذي أدى إلى زوال نشاط هذه الجمعية.[58]

وأيا ما كان الأمر، فيمكننا القول إن الشعب الأوغندي لم يبق مكتوف الأيدي بل قاوم الإمبريالية البريطانية وأعوانها في البلاد بالرغم من أن أشكال المعارضة كانت محدودة الإطار الجغرافي وتفتقر إلى زعامات قادرة على تهديد التواجد الإمبريالي البريطاني في البلاد.

أخيرا ، من خلال تحليل مضمون ما وصل إلينا من مصادر، يمكننا القول أنه بالرغم من أهمية هذه المملكة في تاريخ أفريقيا الحضاري والسياسي، إلا أنها نالها تهميش مقصود

---

[57]Adu Boahen. op.cit. p 447.

[58]- Ibid.p.448

لإخفاء معالم الحكم والسياسة والحضارة فيها، وقد حرص الاستعمار البريطاني بعد فرض هيمنته على ما يعرف اليوم بأوغندا على طمس تلك المعالم، وإن معظم ما قدم من أطروحات نظرية لتفسير قضايا الحكم والسياسة في أفريقيا بعد الاستقلال تعمدت عدم تقديم الفهم الصحيح لأفريقيا ،وأظهرت تحيزا واضحا في قراءة وتدوين التاريخ وتحليله وتفسيره، كما تعرضت المعلومات والإحصاءات المتعلقة بهده المملكة في أحيان كثيرة لعوامل التشويه والتزوير خدمة لأغراض الإمبريالية البريطانية.

ضريح أحد ملوك بوغندا.

المصدر: Lazare Eloundou , UNESCO.

ببليوغرافيا:

1المصادر :

1 – Kaga Apolo. Basekabaka be Buganda. Third edition, The Sheldon Press, London, 1927.

2 –Peters Carl New light on dark Africa. Ward, Lock and co, London, 1891.

3 - Roscoe J. The Buganda: An account of their native customs and beliefs. Franck Cass, London, 1911.

2- المراجع العربية:

1 –منصف بكاي. أضواء على تاريخ إفريقيا. دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر،2009.

2 –رالف لنتون. شجرة الحضارة، ج3، ترجمة: محمد سويدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1990.

3 – المراجع الأجنبية :

1- Chrétien J.P. L'Afrique des grand lacs. Flammarion, Paris, 2000.

2- Iliffe, J, (trad. Jean-Paul Mourlon*), Les Africains, histoire d'un continent*, Flammarion, 2016, p. 467.

3- Kagwa Apolo. In M.S.M Kiwanuka, (éd). The Kings of Buganda. East African Publishing House, Nairobi, 1971.

4 - Marsh, Z. and Kingsnorth, G.W. History of East Africa. Cambridge University Press, 1972.

5 - Médard Henri. Le royaume du Buganda. Karthala, 2007.

6 - Semakula Kiwanuka A history of Buganda:Africana publishing corporation, New York, 1972.

7 - Odhiambo E.S.A. . La politique et le Nationalisme en Afrique Orientale. In Histoire générale de l'Afrique. VII. L'Afrique sous domination coloniale. 1880-1935.Présence Africaine / Edicef /UNESCO, Paris, 1989.

8 - Southwold M. “Succession to the throne of Bgnda” in Goody J., Succession to high Office.Cambridge University Press, Cambridge, 1966.

4 - Articles :

1 - Cartry Michel. « Traditions et changement dans le Royaume du Buganda « Revue Française des sciences politiques.Vol 13, 1963.
2 - Encyclopaedia of Third World. Vol III, p 1839.
2 - M. Gray. “Ahmed bin Ibrahim “The first Arab to reach Buganda” **Uganda Journal**, September 1947, vol II, no 2, pp 80-97.
- Encyclopaedia of Third World. Vol III.

5- مملكة الكونغو.

مقدمة:

إذا أردنا أن نلقي نظرة خاطفة على المصادر والمراجع الخاصة بتاريخ إفريقيا في المكتبات، للاحظنا أن هناك نقصا فادحا في المؤلفات التي تعالج مواضيع خاصة بالقارة السمراء.

والجدير بالذكر أن الكثير من الوثائق الخاصة بتاريخ إفريقيا لم تحظ بعناية وافية في مجال البحث مما جعل إفريقيا تحتاج إلى مؤرخيها من أجل إنقاذ المصادر، وبالتالي استعمالها في مجال الدراسة إذا كانت لا تريد أن يبقى ماضيها مجهولا أو محتكرا على المؤرخين الأوربيين ومثقفيهم.

كل هذا دفعنا إلى تقديم هذا العمل الذي هو عبارة عن مواضيع تتناول الجوانب التاريخية والثقافية معتمدين على وثائق أصلية تجعل القارئ والطالب والمتخصص في الشؤون الإفريقية، يشعر أنه أمام مادة متجددة.

والهدف الأخر من إنجاز هذا الكتاب، هو تزويد الطلبة والأساتذة والمختصين في الشؤون الإفريقية بمرجع يسد الكثير من الثغرات ويكون دليلا عمليا في أيدي المختصين، كما عمدنا إلى معالجة هذه المواضيع ذات الأهمية والدلالات الكبيرة والتي ظلت مجهولة وغير معتنى بها في دراساتنا وأعمالنا الأكاديمية.

ويقوم هذا العمل في أساسه على تقديم مادة دسمة للباحثين في الشؤون الإفريقية، وذلك من خلال مواضيع متنوعة تتناول الجوانب الثقافية والسياسية والسوسيو-اقتصادية والعسكرية والدبلوماسية.

إن دراسة تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء قبل التواجد الاستعماري الاوربي يغدو أمرا شاقا ومعقدا بالنسبة للمؤرخين بسبب طبيعة المصادر المتوفرة. فإذا كان تاريخ أوربا مكتوبا

باعتماد المؤرخ على الوثائق والكتب الطبوعة ، فإن تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء يعتمد فيه المؤرخ على مصادر أخرى متنوعة لاسيما تلك المتعلقة بالتاريخ الشفوي. وعلى هذا الأساس ، فتاريخ الممالك الإفريقية مثل الكونغو أو المونوموتابا يتطلب من المؤرخ استعمال ما تركه الرحالة الأوروبيون ، والاستعانة بعلم الآثار وعلم اللسانيات والتاريخ الشفوي والانثروبولوجيا.

وفي السياق ذاته، يمكننا القول أن دراسة هذه الممالك تتطلب من الباحث استعمال هذه المصادر المتنوعة لإعادة بناء ماض معقد.

يتصل تاريخ إفريقيا اتصالا وثيقا بتاريخ العالم ، فقد اثبت علم الآثار أن الانسان استوطن إفريقيا منذ العصور الغابرة واستطاع العلماء من خلال الحفريات تتبع مراحل نشأة الانسان. وعلية يمكننا القول أن إفريقيا هي مهد الجنس البشري.

فخلال آلاف السنين صنعت الشعوب الافريقية مقومات ثقافتها الخاصة من حيث المسكن والملبس واللغة والرقص والغناء. وعلى هذا الأساس ، يحتاج تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء إلى المزيد من الدراسات الأكاديمية التي ستساهم بدون شك في تسليط الأضواء على بعض الحقائق التاريخية التي أهملها المؤرخون لاسيما تلك المتعلقة بفترة ما قبل السيطرة الإمبريالية على إفريقيا. وبعد أن توفرت لدينا كمية هائلة من الأرشيف ومجموعة ضخمة من الوثائق ، شرعنا في إعداد هذا الكتاب الذي سيمكن الباحثين والمهتمين بالشؤون الافريقية من التعمق أو التخصص في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء.

تمهيد :

تذكر المصادر أن الكيانات السياسية الأولى في القارة السمراء قامت حول التعدين وتربية الحيوانات من بقر وغنم في المناطق الرعوية.

وتجدر الإشارة إلى أن النواة الأولى لهذه الكيانات كانت قائمة حول عائلات غنية استطاعت جلب الآخرين للانخراط تحت لوائها ، ومن ثمة بدأت توسع في إطارها الجغرافي.

ويلاحظ هنا أن هذه التنظيمات قد بدأت في شكل رئاسة قبيلة يمكن أن نطلق عليها رئاسة مشيخة أو قبيلة ولكن إذا امتدت لتشمل أكثر من قبيلة ، فتصبح مملكة . وعليه ، يمكننا القول أن الشروط الأساسية لإقامة نظام سياسي وسوسيو– اقتصادي يخضع لمقاييس تتجلى في ما يلي:

- ضرورة وجود زعيم قرية أو قبيلة.
- وجود زعيم مجموعة من القرى التي تتحول إلى مشيخات أو محافظات.
- وجود زعيم يوحد كل المحافظات أو القبائل تحت رايته في إطار يعرف بالمملكة أو الإمبراطورية. وعلى هذا الأساس، يمكننا القول أيضا أن هذه الشروط توفرت في مملكة الكونغو.

وأيا ما كان الأمر، فإن النظام السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء كان قائما على نمطين من الحكم . فالنظام لأول ، يمكن أن نطلق عليه "النظام الملكي المركزي" ، أما الثاني ، فهو عبارة عن نظام يقوم على أساس اللامركزية. وعليه، فمملكة الكونغو ينطبق عليها النمط الأول أي النظام الملكي المركزي التي أشارت إليه كتابات البرتغاليين الذين وصلوا إلى المنطقة في القرن الخامس عشر.

وفي هذا السياق ، نلاحظ أن الأنظمة السياسية في إفريقيا جنوب الصحراء لاسيما بمنطقة الكونغو ارتكزت في مرحلتها الأولى على القرية [59] التي لم تلبث أن تطورت إلى رئاسة مشيخة باعتبارها وحدة إقليمية يشرف عليها زعيم تقليدي يكون عادة أكبر زعماء القرى سنا.[60] وعليه، يمكن اعتبار ذلك بمثابة الانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية.

[59] I. Ndaywelé Nziem. Histoire générale du Congo , de l'héritage ancien à la république démocratique . De Boeck et Larcier , Bruxelles , 1998. P 60.

[60] Ibid.

ولعل أهم ما يميز هذه المرحلة ، هو أن يصبح أتباع رئيس المشيخة من الطبقة الأرستقراطية ، وبالتالي تصبح مجموعة تابعة له مؤهلة لممارسة السلطة سواء تنفيذية أو تشريعية أي مجلس استشاري يساعد الملك في مهامه.

أما المرحلة الثالثة فتتجلى في تحول المجتمع إلى إقامة نظام مركزي . وعليه ، يمكننا القول أن النظام السياسي الذي تبناه المجتمع الكونغولي هو النظام الملكي.

وفي السياق ذاته ، إن الشروط الأساسية لتبني النظام الملكي هو بدون شك وجود زعيم لقرية أو قبيلة ،وزعيم لمجموعة من القرى أو المشايخ وزعيم لكل المجتمع السياسي والسوسيو–اقتصادي أي التحول إلى مرحلة الملكية أو الإمبراطورية هذا من جهة، أما من جهة أخرى فتصبح المشيخات في ظل هذا النظام السياسي الجديد بمثابة محافظات أو أقاليم تابعة للحكومة المركزية.

أ – إطارها الجغرافي

كان إطار مملكة الكونغو جنوب غرب إفريقيا بحيث ضمت أراضي من شمال أنغولا الحالية ، كابندا وجمهورية الكونغو الشعبية ، إضافة إلى أجزاء من غرب الكونغو الديمقراطية (الزائير سابقا) ، وجزء من الغابون . وعندما كانت المملكة في أوج قوتها ، امتدت رقعتها الجغرافية إلى غاية المحيط الأطلسي أي غرب بحيرة كوانغو **Kwango** شرقا ، ونهر الكونغو أي إلى غاية واد لوجي **Loje** جنوبا . وبناء على كتابات وروايات الأوربيين ، كانت أنغولا [61] جزء من هذه المملكة إلى غاية وصول المستكشف البرتغالي بول دياز سنة 1574 الذي فصل أنغولا عن مملكة الكونغو.[62] ومن الصعب تحديد المساحة الحقيقية لمملكة

[61] ومن أبرز المناطق التي ضمتها مملكة الكونغو في ما يعرف بأنغولا اليوم نذكر : لواندا وكاهندا Kahenda ، أنظر : W.G.L. Randles, *L'ancien royaume du Congo, des origines à la fin du XIXe siècle*, Paris-La Haye, Mouton et Co., 1968. P 21.

[62] John K. Thornton. *"The Origins and Early History of the Kingdom of Kongo," ***International Journal of African Historical Studies*** 34/1 (2001): 89–120.

الكونغو لأن تقلصها تزامن وكتابات البرتغاليين الذين وصلوا إلى المنطقة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد من جهة ، وعدم وجود الكتابة لدى مملكة الكونغو من جهة أخرى.[63]

أخيرا ، يبدو من الضروري الإشارة إلى أن مملكة الكونغو كانت لها كتابة خاصة بها لكن لم يتم حل رموزها إلى اليوم.[64]

ب – أصول المملكة:

يتفق المؤرخون على أن الفضل الكبير في تأسيس هذه المملكة يعود إلى قبائل البانتو الذين هاجروا من الكامرون ونيجريا ووصلوا إلى غاية مصب نهر الكونغو.[65] ومن قبائل البانتو التي استوطنت المنطقة مجموعة إثنية عرفت بالباكونغو وتمركزت في المنطقة الممتدة من بوانت نوار **Pointe-noire** بالكونغو برازافيل إلى غاية مدينة لواندا بأنغولا في الجنوب.[66]

وينحدر سكان هذه المملكة من امرأة تدعى نزينغا **Nzinga** بنت نكويو **Nkuwu** [67] وزوجة نيمي.**Nimi** وعليه ، يمكن القول أن قبيلة الباكونغو **Bakongo** ينتسبون إلى هذه المرأة. ويذكر القس البلجيكي كوفيلي **Jean Cuvelier** " أنه بناء على التاريخ الشفوي ، يعود تأسيس المملكة إلى سنة 1270" .[68]

---

[63] W.G.L. Randles . Op.cit. pp 18-25.

[64] R et M. Cornevin. « Histoire de l'Afrique **» in revue Française d'histoire d'outre-mer** , Vol 50 , No 178 . p 58.

[65] Raphaël Batsîkama ba Mampuya ma Ndâwla, *L'ancien royaume du Congo et les Bakongo*, éd. L'Harmattan, Paris, 1999. P XVI.

[66] Encyclopaedia Britannica. 2010.

[67] *Encyclopedia of World Biography* on Nzinga Nkuwu.

[68] J. Cuvelier. L'ancien Royaume du Congo. Desclée de Brouwer, Bruxelles , 1946.p 253.

وتجدر الإشارة إلى أنى نزينغا أنجبت ثلاث أطفال ، طفلين توأمين هما فيتا نيمي **Vita Nimi** ومبانزو أ نيمي **Mpanzu a Nimi** وطفلة تدعى لوكيني لوا نيمي **Lukeni Iwa Nimi** ، إن المنحدرين من أصل فيتا نيمي تمركزوا بمنطقة كونغو– ديا – مبانغالي **Kongo – Dya – Mpangale** التي اشتهرت بمناجمها ومحاذاتها لنهر كوانزا **Kwanza** أو نزادي **Nzadi** الذي اشتق منه تسمية نهر زائير.[69] كما أسسوا الكثير من الأقاليم لاسيما مبانغالا **Mpangala**، مازنغا **Mazinga** ، نغويو ، **Ngoyo**، مبامبا **Mpemba** ، لوانغو **Lwangu**، نزوندي **Nsundi** ، مبيندا **Mbinda** ، مبامبا **Mbamba** ومبانغو **Mpangu** [70].

وفي ذات السياق ، تطورت المملكة بفعل هجرات متتالية لقبائل البانتو في الفترة الممتدة من القرن 7 م و القرن 15 م في مناطق كانت موطنا لقبيلة باكا **Baka** التي هي من أصل بيغمي.[71] وعلى هذا الأساس ، تم توحيد هذه القبائل تحت سلطة الملك الذي كان يلقب ب مانيكونغو **Manikongo** وهو الزعيم الروحي في نفس الوقت. كما كان الملك ينتخب من قبل الأعيان المنتمين للإثنى عشر فرقة المشكلة لقبيلة الباكونغو[72] **Bakongo.**

أما عن أصل كلمة "كونغو" ، فيبدو أن أصلها **نكونغو Nkongo** ومعناها الصيد. ويبدو أيضا أن كلمة كونغو هو اسم شخص الذي اخترع الخنجر والرمح.[73]

وعلى هذا الأساس ، وبناء على التاريخ الشفوي ، "استعملت كلمة كونغو للدلالة على الشخص تارة ، وعلى الخنجر أو الرمح تارة أخرى". كما تذكر مصادر أخرى أن كلمة كونغو

---

[69] John K. Thornton.op.cit. p 106.

[70] Raphaël Batsîkama ba Mampuya ma Ndâwla. Op.cit. P 217. See also A report of the Kingdom of Congo and of the surrounding countries. By Filipo Pigafetta , traduit par Margarite Hutchinson. Glbert and Rivington Printers , London , 1881. P 43.

[71] W.G.L. Randles . *op.cit*. P 19.

[72] For more details , see Raphaël Batsîkama ba Mampuya ma Ndâwla.op.cit.

[73] I. Ndaywelé Nziem. Ibid. pp 80-81.

هي مرادفة لكلمة قديمة تعرف ب مفومو **Mfumu** ومعناها زعيم أو إنسان حر أو الصياد المؤسس لقرية ما ، كما استعملت الكلمة للدلالة على جلد الفهد الذي يعبر عن علامات القوة والسلطة.[74]

وأيا ما كان الأمر ، فهناك فرضيتان تحدد أصول مملكة الكونغو ، فالأستاذ فانسينا **Vansina** يعتقد في فرضية أن مؤسسي المملكة من منطقة تقع شمال نهر الكونغو فيما يعرف اليوم بمنطقة مايونبي **Maoymbe** ، وبالتحديد قرب مصب واد شيلنغو **Shilongo** .[75] أما المؤرخ كوفيلي **Cuvelier** ، فهو أول من ذكر بأن أصول مؤسسي مملكة الكونغو من الشمال ، وذلك بناء على ما ذكره رجل دين مسيحي يدعى جيوردانو **Giordano da Motesarchio** سنة 1650 .[76]

أما الفرضية الأخرى ، وبناء على فان وينغ ، فيعتقد حسب روايات شفوية أن أصولهم من منطقة كوانغو **Kwango** الواقعة شرق الكونغو حاليا. ورواية أخرى تذكر أن الفضل يعود إلى نيمي في تاسيس هذه المملكة.[77]

ج – مظاهر الحياة السياسية والسوسيو– إقتصادية في مملكة الكونغو:

– 1المظاهر السياسية:

أ – الإدارة:

إن مؤسسي هذه المملكة قد اعتمدوا على نموذجاً دائريا يضم أربع مقاطعات ونواة كبيرة موزعة على الشكل التالي:

---

[74] G. Balandier. La vie quotidienne au royaume du Kongo , du XVIéme au XVIIIéme siècle . Hachette , Paris , 1965 . P 251.

[75] J. Vansina . Notes sur les origines du royaume du Kongo. Journal of African History , 4, 1963, pp 33-38.

[76] J. Cuvelier. Documents sur une mission Française au Kakongo. 1766-1776. IRCB Bruxelles , 1953.. p 8.

[77] W. Mac gaffey. " Oral tradition in Central Africa" International Journal of African Historical Studies . vol III , (3) pp 417-426.

– المقاطعة "صفر" 0: الوجهة البحرية للمحيط الأطلسي غرباً.

–المقاطعة 1: كونغو– ديا– مبانغالا**kongo –Dya –Mpangala** جنوبا.

–المقاطعة 2: كونغو– ديا – مولازا **Mulaza** شرقا.

–المقاطعة 3 : كونغو– ديا– مبانزا Mpanza شمالا. [78]

وباستثناء الوجهة البحرية، ضمت المقاطعات المنوه عنها أعلاه هيئات إدارية تعرف ب **ka–Mbamba** بالنسبة للمقاطعة الأولى أو المقاطعة رقم واحد، و **Ki–Mbemba** بالنسبة للمقاطعة 2، و **Ka–Mbangu** بالنسبة للمقاطعة 3. أما بالنسبة للنواة المعروفة ب**Zita–Dya–Nza**(نواة العالم)، فكان لها تنظيما خاصا خصوصا اذا ما علمنا أنها كانت تظم العاصمة مبانزا كونغو **Mpanza–Kongo** التي كانت العاصمة للملكة ومقرا للملك المعروف ب موييني **Mwene** لكن البرتغاليين غيروا تلك التسمية بتسمية جديدة هي ساوسلفادور **Sao Salvador** .أما مبانزا أو نغاندا **Nganda** ، فمعناها العاصمة. وعلى هذا الأساس، فتسمية مبانزا كونغو تترجم إلى عاصمة الكونغو.[79]

إن الهيئات الإدارية للمقاطعات المنوه عنها أعلاه) كامبامبا **ka–Mbanba** ، كيمبيمبا **Ki–Mbemba**، كامبونغو **Ka–Mbangu**وزيتا ديا نزا **Zita–Dya–Nza** التي تضم العاصمة مبانزا كونغو (قد شكلت نوع من الفيديرالية السياسية سميت ب كونغو ديانزا**Congo–Dya–Nza** . وكانت كل مقاطعة تضم سبعة أقاليم تعرف ب " نكوسي **Nkosi** ، وكل نكوسي يضم العديد من كي مبوكو **Ki–Mbuku** الذي يضم بدوره العديد من كي كاي **Ki–Kayi** .كما أن هذا النمط من التهيئة الإقليمية سيتطور مع السنين .

[78] I. Ndaywelé Nziem. Ibid. p 80.

[79] A report of the Kingdom of Congo and of the surrounding countries. By Filipo Pigafetta , traduit par Margarite Hutchinson. Op.cit. PP 65-66.

وفي هذا السياق ، تجدر الإشارة إلى أن لكل مقاطعة عاصمة تحمل تقريبا نفس إسم المقاطعة. وعلى هذا الأساس ، فمبانزا سوندي **Mpanza Sundi** كانت عاصمة لمقاطعة سوندي.[80] و تذكر المصادر أن مملكة الكونغو بلغت مساحتها 500 كلم مربع في القرن 16 م.

وبما أن الكتابة كانت غير شائعة في مملكة الكونغو ، فالروايات الشفوية تذكر أن ملك الكونغو كلف أحد أقاربه المدعو ني مبوما **Ne Mboma** بمهمة توسيع رقعة المملكة غربا. وعليه ، غادر ني مبوما العاصمة مبانزا كونغو وعبر نهر الكونغو ليسيطر على نزوندو **Nzondo** التي كانت موطن قبيلة بوما **Boma** على الضفة اليسرى لنهر الكونغو.[81]

ومن العوامل الرئيسية التي جعلت ملك الكونغو يفكر في توسيع رقعة المملكة ، نذكر الاكتظاظ في عدد السكان التي عرفته العاصمة في الفترات الأولى من تأسيسها ، الأمر الذي أدى إلى تقلص المساحات المزروعة ونقض فادح في الغذاء مما تسبب في ظهور المجاعة في عاصمة مملكة الكونغو. وعليه ، قادت هذه الأوضاع السيئة ملك الكونغو إلى اتخاذ قرار يتجلى في ضرورة توسيع رقعة المملكة وضم مناطق جديدة . وعلى هذا الأساس ، أرسل الملك حملات عسكرية قصد ضم أراض جديدة وإقامة مستوطنات بها منها تلك التي انطلقت من مبامبا واخضعت مناطق شاسعة كانت تابعة لقبيلتي نزوندي ومبانغو الواقعتين شمال شرق المملكة.[82]

لكن تشاء الأقدار أن يتزعزع هذا النظام الإداري بمجيء البرتغاليين بصفة خاصة والأوربيين بصفة عامة في إطار الكشوفات الجغرافية بتطبيق البرتغاليين لسياسة فرق تسد من جهة ، وتمسيح سكان المملكة من جهة أخرى ، الأمر الذي سيؤدي إلى دخول مملكة

[80] A. Hilton. The Kingdom of Kongo. Clarendon Press, Oxford, 1985. P 34.

[81] أمتدت رقعة قبيلة بوما إلى غاية جزيرة بوما التي عرفت أيضا باسم " جزيرة الأمراء" وللمزيد من التفاصيل أنظر :
J. Cuvelier. Documents sur une mission Française au Kakongo. 1766-1776.

[82] Oliver , R and Atmore , A. Medieval Africa. 1250-1800. Cambridge University Press , Cambridge , 2001. P 166.

الكونغو في مرحلة الضعف بعد عملية استقلال الكثير من الأقاليم على السلطة المركزية في مبانزا كونغو.[83]

ب – التنظيم السياسي:

نجد على رأس هرم السلطة في مملكة الكونغو الملك الذي كان يلقب ب " موييني " **Mwene** أو كما يحلو للبرتغاليين تسميته ب "ماني " **Mani** لأن كلمة ماني استعملت بكثرة في الأدبيات أو الكتابات الأوربية ، ويبدو وكأنها ترجمة برتغالية لموييني . وتجدر الإشارة إلى أن الملك كان ينتخب من قبل الأعيان أو مجلس الحكماء ، كما يذكر التاريخ الشفهي أن أول ملك كان يدعى نيمي لوكيني لوا نزينغا **Nimi Lukeni Lwa Nzinga** ، فنيمي هو اسم جده بن لوكيني وحفيد جدته نزينغا نكو.[84]

وتجدر الإشارة إلى أن نظام الحكم في مملكة الكونغو لم يكن نظاما وراثيا بل كان الملك ينتخب من قبل مسؤول يعرف بمانيفوندا **Manivunda** وحكام المحافظات بما فيها محافظتي مباتا وسوفو **Mbata and Sovo** [85]

وفرض المجلس المنوه عنه أعلاه شروطا لاعتلاء العرش تجلت فيما يلي:

- القوة.
- المثالية.
- التجاوب مع طموحات الرعية.
- امتلاك الأراضي في كل محافظات المملكة.[86]

[83] I. Ndaywelé Nziem. Op.cit. p 80.
[84] John K. Thornton . "The kingdom of Kongo. 1390-1678." **Cahiers d'études Africaines**. Vol 22 , No 87 , 1982 , p 330.
[85] W.G.L. Randles . *op.cit. p 28.*

[86]Ibid.p 20.

وتذكر الكثير من المصادر أن الملك لم يكن يتمتع بالسلطة المطلقة بحيث كان عليه التنسيق مع مجلس استشاري يضم من 10 إلى 12 عضوا.[87] وعليه، يمكننا القول أن هذا النظام السياسي كانت تمارسه جل الممالك في غرب إفريقيا.

وكان ملك الكونغو يجمع بين وظفتي الإدارة والمسائل العسكرية بحيث كان قائد الجيش التي تجلت مهامه في حفظ الأمن وإخماد أي تمرد من حكام المحافظات ، إضافة إلى توسيع حدود المملكة ويحافظ على سلامة تراب المملكة.[88] كما كان الملك زعيما روحيا في نفس الوقت أي كان بالنسبة للكونغوليين بمثابة الوسيط بين الأحياء والأموات.[89]

أما بخصوص ديوان الملك ، فنلاحظ أنه كان يضم الطاقم التالي : مبينزا كونغو **Mbenza Congo** وزيرا مكلفا بالمسائل العسكرية . ني مبونغي **Ne Mpungi** قائد الجوق الموسيقي بالقصر الملكي . وافايهيه نتينو **Wavadidi Ntinu** أحسن النقاشين والرسامين بحيث أن مملكة الكونغو اشتهرت بحرفة النقش على الخشب . وتجدر الإشارة إلى أن هذا التنظيم ينطبق على المحافظات والأقاليم التابعة للسلطة المركزية في مبانزا كونغو.[90]

ج – الجانب القضائي:

ضمت مملكة الكونغو محاكم تنظر في المسائل المدنية والجنائية يشرف عليها رؤساء القرى أو حكام المحافظات ، أما أذا تعلق الأمر بقضية معقدة ، فالأمر يعود إلى قضاة يعينهم الملك أو تحت رئاسة الملك شخصيا. وكانت المحكمة التي يشرف عليها الملك تنظر

[87] Alfredo Margarida. « L'ancien Royaume du Congo » Annales économies, sociétés et civilisations. Vol 25, numéro 6, 1970. 1719-1720.
[88] Didier Gondola. The History of Congo. Greenwood Press , London, 2002. P 15.
[89] Ibid . P 28.
[90] Batsîkama ba Mampuya ma Ndâwla. Op.cit.

عادة في السائل التي تخص تورط حكام المحافظات في قضايا مدنية أو جنائية ، إضافة إلى النظر في مسائل الطعن التي تخص زعماء القبائل أو رؤساء القرى.[91]

2 – المظاهرالسوسيو – اقتصادية:

أ – المظاهر الإقتصادية:

حسب مصدر برتغالي يعود تاريخه إلى سنة 1624، فان تأسيس هذه المملكة يعود إلى القرن 13م . ويذكر المصدر ذاته أن إمبراطورية الكونغو كانت متطورة تطورا يلفت الانتباه، لأنها كانت تملك شبكة تجارية واسعة، وتزخر بمواد أولية نذكر منها العاج، النحاس، الذهب من جهة، وتشتهر بصناعة الأواني الفخارية ولها عملة من جهة أخرى.

وتذكر المصادر أيضا أن مملكة الكونغو اهتمت بالزراعة لاسيما زراعة السرغو ، الدخن ، الذرى والأرز والمانيوك الذي انتشرت زراعته في نهاية القرن السادس عشر ، إضافة إلى غرس أشجار الموز والاستفادة من أشجار زيت النخيل وقصب السكر.[92] وتميزت المناطق الواقعة على بعد 100 كلم من العاصمة مبانزا كونغو بوجود هضاب يصل طولها إلى 1000 متروكمية تساقط قدرت ب 1000 ملم. وعلى هذا الأساس ، تميزت هذه المناطق بجودة أراضيها وبمناخ معتدل ، إضافة إلى وجود السافانا والغابات الكثيفة.[93]

ولوحظ أن مزارعي المملكة قد تميزوا بمهارتهم. والعمل في الأراضي الزراعية كان من اختصاص النساء لأن الرجال كانوا يهتمون بالتجارة والصناعة التقليدية والمسائل العسكرية

[91] Rudy Mbemba-Dya-Bô-Benazo-Mbanzulu in « *Le procès de Kimpa Vita la Jeanne d'Arc congolaise* » L'Harmattan 2002. P.66

[92] A report of the Kingdom of Congo and of the surrounding countries. Op.cit. pp 67-68.
[93] A. Hilton. Op.cit. pp 1-5.

إلا أنه في بعض الأحيان يقومون بمساعدة النساء في مسألة تحضير الأراضي الزراعية كقطع الأشجار واستصلاح الأراضي في الغابات.[94]

وكان سكان المملكة يمارسون أيضا نشاطات اقتصادية مختلفة نذكر منها تربية المواشي لاسيما الأبقار والماعز والأغنام والخنازير.[95] ولكن امتلاك الأبقار كان حكرا على الملك والأعيان . كما مارس سكان مملكة الكونغو حرفة الصيد الذي كان يدخل في إطار غذائهم اليومي . وتجدر الإشارة إلى أن محتكري تقنيات الصناعة التقليدية بما في ذلك الحدادة كانوا عادة من الطبقة الأرستقراطية. ففي المقام الأول، نجد أولائك الحرفيين الذين يستعملون المعادن كالحديد في صنع مختلف الأدوات والأسلحة . وعلى هذا الأساس ، فهم يحظون بمكانة مرموقة في المملكة بحيث تعادل مكانتهم الاجتماعية القادة العسكريين أو الكهنة والسحرة. أما النحاس، فقد كان استعماله شائعا في المملكة[96] بحيث يتم صنع الحلي وبعض الأدوات المستعملة في الحياة اليومية .[97]

ومن بين المهن التي كانت لها أهمية كبيرة في المجتمع الكونغولي النسيج باستعمال مواد أولية نادرة أدهشت البرتغاليين عندما وضعوا قدمهم في هذه المملكة بعد تبني حركة الكشوفات الجغرافية .[98] كما ضمت مملكة الكونغو الكثير من المدارس الخاصة بالمهن ، كان من أشهرها:

1- كيمبوسي **Kimposi**

2- كيمكيمبا. **Kimkimba**

3- بويلو **Buelo**

---

[94] Ibid.
[95] Alfredo Margarida.op.cit. p 1721.
[96] Ibid.
[97] W.G.L. Randles . Op.cit. pp 79-84. See also Didier Gondola. P 27.

[98] Ibid.

4 – ليمبا **Lemba.**

والجدير بالذكر أن التجارة لعبت دورا كبيرا في التنمية الاقتصادية للمملكة بحيث كان يتم استيراد الملح، المنسوجات والمواشي. وكانت عمليات الاستيراد أو المبادلات التجارية تتم بمراقبة من الملك أو أعيان المحافظات. أما فيما يخص التصدير، فكانت العمليات تشمل المعادن والمنتوجات المحلية ولكن المملكة في أواخر عهدها شجعت تجارة الرقيق بعد التوغل البرتغالي في المملكة مما سيؤثر سلبا على التركيبة الاجتماعية في هذه المملكة.[99] وكانت للمملكة عدة مراكز تجارية في الداخل وقرب الأنهار.[100] كما كانت الضرائب تدفع كل ثلاث سنوات ولكن منذ مجيئ الربرتغاليين أصبحت تدفع سنويا وكانت عبارة عن مواشي وفواكه وزيت النخيل.[101]

ب – المظاهر الاجتماعية :

تذكر المصادر أن المجتمع في مملكة الكونغو تميز بكونه كان مجتمعا يغلب عليه الطابع الطبقي ووجود فوارق اجتماعية بارزة بحيث كان الرجل أهم من المرأة ، وعلى هذا الأساس ، نجد الطبقة الارستقراطية أولا ، ثم يليها الرجال الأحرار، فالعبيد الذين هم ملك للسيد الذي يستفيد من خدماتهم ولكن في المقابل ، يوفر لهم الحماية ويعاملهم معاملة حسنة بما في ذلك تزويجهم.[102] وعليه ، يمكننا القول أن طبقة العبيد تمثل الحد الأقصى من الطبقة الشغيلة في المجتمع . وربما هذا ما يفسر لنا اعتماد البرتغاليين على هذا التقسيم الطبقي لإنجاح تجارة الرقيق بحيث استغل الكثير من العبيد ليصبحوا فيما بعد بمثابة النواة الأولى

---

[99] For more details , see Jan Vansina, *Kingdoms of the Savanna*, Madison, WI, University of Wisconsin Press, 1966.

[100] Cécile Frommont. The art of conversion: Christian visual culture in the kingdom of Kongo. University of North Carolina Press, 2014. Pp 2-5.

[101] Alfredo Margarida.op.cit. p 1721.

[102] Anonyme, *Histoire du royaume du Congo*, 1624, traduit et éd. par François Bontick dans Études d'Histoire africaine, IV, 1972.

في مسألة رواج تجارة الرقيق التي عرفتها القارة السمراء بعد الكشوفات الجغرافية . وتذكر المصادر البرتغالية تمكن سكان المملكة من استعمال النحاس والحديد والخشب، الأمر الذي يفسر لنا تمكنهم من التفنن في صنع التماثيل التي تتسم بأسلوبها النادر الذي أبهر كل الفنانين على مستوى المعمورة من ناحية، ومن ناحية أخرى بواسطته يمكن حل الكثير من الألغاز التي تختبئ وراء كل عمل فني، وبالتالي التعرف على تاريخ هذا الجزء من إفريقيا.[103]

أما إذا انتقلنا إلى الجانب الديني أو الروحي ، فنلاحظ أن مملكة الكونغو كانت على غرار سائر المجتمعات الإفريقية تتميز بعبادة ظواهر ما فوق الطبيعة ، وكان السحر يمارس بشكل واسع ، إضافة إلى وجود الكهنة في المعابد الذين يعملون على الإنباء بالغيب عن طريق الوحي . وعلى هذا الأساس، كانت الديانة في مملكة الكونغو تدور حول عبادة الموتى ، والاعتقاد أن أرواح الموتى تعود بعد أعوام وتتجسد في الأطفال حديثي الولادة . وعليه ، فهم يسمون هؤلاء الأطفال الجدد بأسماء الذين ماتوا ، كما تتجلى طقوسهم الدينية في تقديم القرابين ، و الآلهة العظيمة عند الكونغوليين هي روح زعيم العشيرة ، وعبد الكونغوليون أيضا الظواهر الطبيعية منها ولكل إلاه معبدا خاصا تقوم هيئة من الكهنة بالإشراف عليه كما اعتبر الكثير من الكونغوليين الملك بمثابة الزعيم الروحي وإلاه في نفس الوقت [104] ولكن أسوء ما في ديانة مملكة الكونغو هو انتشار ظاهرة تقديم القرابين البشرية للتغلب عن ظاهرة الخوف من حدوث كوارث طبيعية . وعليه ، كان المئات من العبيد يقدمون كقرابين.

د – سقوط المملكة:

تذكر المصادر أن مجموعة من العوامل ساهمت في سقوط مملكة الكونغو ومن بينها نذكر ما يلي:

[103] G. Balandier. *Op.cit*. P 15.
[104] Didier Gondola. P 28.

– 1 إن التواجد البرتغالي في المنطقة ابتداء من نهاية القرن السادس عشر الميلادي في أطار ما كان يسمى بالكشوفات الجغرافية ، يعد بمثابة عامل من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط مملكة الكونغو خصوصا إذا ما علمنا أن البرتغاليين إقاموا في البداية علاقات مع ملك الكونغو ، كما اصطحبوا الكثير من رجال الدين المسيحيين للقيام بمهمة نشر الديانة المسيحية حتى أن الملك نزينغا نكو نفسه اعتنق المسيحية سنة 1491 م وشجع البعثات التبشيرية المسيحية لدخول المملكة ، ومن ثمة الشروع في عملية تنصير واسعة ، إضافة إلى بناء المدارس على غرار ما فعله الجزويت الذين بنوا مدرسة ل 600 تلميذ. كما دخل ولي عهد مملكة الكونغو المسيحية وغير إسمه إلى ألفونسو سنة 1506 م ، وعلى هذا الأساس ، يمكن اعتبار الفترة الممتدة من 1506 إلى غاية 1543 بمثابة مرحلة النفوذ البرتغالي في المنطقة.[105]

وتذكر المصادر أن ملك الكونغو أرسل إبنه لوكيني لوا نزينغا Lukeni Lua **Nzinga** للبرتغال ليصبح أسقفا أو أول رجل دين مسيحي إفريقي في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية باسم هنريك . وعليه ، يمكن القول أن هذه التحولات قد أثرت سلبا على التركيبة الاجتماعية لمملكة الكونغو بحيث كان ذلك بمثابة بداية النهاية لهذه المملكة الكبيرة التي ستخضع لاحقا للسيطرة الأوربية[106].

– 2 تذكر المصادر أن تجارة الرقيق [107] كانت عاملا كبيرا في سقوط مملكة الكونغو. فبعد تمكن البرتغاليين من اكتشاف البرازيل والشروع في استغلال الإمكانيات الاقتصادية لهذا

[105] Oliver , R and Atmore . op.cit. p 170.

[106]Cecile Fromont, *The Art of Conversion: Christian Visual Culture in the Kingdom of Kongo*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2014.

[107] تعد هذه التجارة بمثابة وصمة عار في تاريخ البشرية خصوصا إذا ما علمنا أن الأفارقة اعتبروا كسلعة، كما عرفت هذه التجارة أيضا بالتجارة المثلثية . وعليه ، استعمل الأوربيون اليد العاملة الإفريقية في شتى المجالات الاقتصادية لاسيما في الزراعة أو إنتاج المحاصيل التجارية المدارية التي كانت تلقى رواجا في العالم الجديد كالقطن ، البن السكر والسيسال .

الجزء من العالم الجديد ، أصبحت الحاجة ملحة لليد العاملة في المزارع لاسيما. وعلى هذا الأساس، تبنى البرتغاليون تجارة جديدة عرفت بتجارة الرقيق التي ساهمت إلى حد كبير في انخفاض عدد سكان المملكة. وعليه، فبعدما كانت الكثافة السكانية تقدر ب 35 ساكن في الكيلومتر المربع ، انخفضت إلى خمسة في الكيلومتر المربع في بداية القرن التاسع عشر،

وتشير بعض المصادر إلى أن عدد المهجرين الأفارقة تراوح بين 4000 و7000 في السنة خلال القرن 16 م ، أما العدد الإجمالي خلال ثلاثة قرون ، فقد بلغ ..1750000[108]. كما تشير مصادر أخرى إلى أن مرض **Variole** الذي حمله الأوروبيون إلى المنطقة قد ساهم في وفاة نصف سكان المملكة مع حلول سنة 1675 .[109]

– 3 انفصال الكثير من المحافظات عن الحكومة المركزية. وعليه ، تقلصت المملكة حتى أصبحت مملكة صغيرة خصوصا بعد ظهور تهديدات قبائل جاغا **Jaga** التي أجبرت سكان مقاطعة نسوندي إلى الهجرة لمنطة مايومبي.[110]

وفي هذا السياق، تمكنث قبائال جاغا من السيطرة على مناطق كثيرة من مملكة الكونغو في الفترة الممتدة من 1568 إلى غاية 1570 م [111] ، إضافة إلى هزيمة جيش المملكة أمام

والجدير بالذكر أن الأوربيين مارسوا هذه التجارة لاسيما الإنجليز، الهولنديين، البرتغاليين والفرنسيين. وكان البابا نيكولا الخامس قد بارك هذه التجارة . وعندما تبنى البرتغاليون حركة الكشوفات الجغرافية منذ عهد الأمير هنري الملاح ، تمكنوا من فتح مراكز تجارية على طول الشريط الساحلي المطل على المحيط الأطلسي بما في ذلك الموزمبيق المطلة على المحيط الهندي . كما مارس البرتغاليون تجارة الرقيق عن طريق الحصول على العبيد مقابل الأسلحة. وجعل الأوربيون من تجارة الرقيق في إفريقيا تجارة عالمية لها مؤسساتها في شكل شركات لها فروع أوكلت إليها مهام تتجلى في القنص، النقل والتجميع، كما جعلوا لها وكلاء وعملاء وسماسرة وأسواقا منظمة في إفريقيا وأوربا.

[108] C.Rollet . W.G.L. Randles. L'ancien royaume du Kongo , des origines à la fin du XIXéme siecle . In Annales de demographie historique.Migrations, 1970 , pp 423-424.
[109] Ibid. p 423.
[110] Raphaël Batsîkama ba Mampuya ma Ndâwla. Voici les Jagas. ONRD , Kinshasa, 1971. P 61.
[111] Oliver , R and Atmore , A. op.cit. p 172.

القوات البرتغالية في موقعة مبويلا **Mbwila** يوم 29 أكتوبر سنة 1665 م ومقتل الملك أنطونيو الاول وولديه وخمسة آلاف مقاتل و أربعمائة من الاعيان.[112]

وفي مؤتمر برلين 1884–1885 تم تقسيم المملكة في ما بين القوى الإمبريالية الأوربية بحيث تم منح جزء لملك بلجيكا كملكية خاصة وجزء للبرتغال ، أما الجزء الآخر ، فآل لفرنسا.

خاتمة:

بناء على ما تقدم ، يخلص الدارس إلى الاستنتاجات التالية :

1- يتفق المؤرخون على أن تأسيس مملكة الكونغو كان نتيجة قطيعة مع كيان سياسي كان موجودا حول نهر الكونغو ومصحوب بهجرات متتالية لقبائل البانتو بصفة عامة والباكونغو بصفة خاصة. ويبدو أن هذه الوضعية أو النموذج كان متواجدا على طول حوض نهر الكونغو.
2- إن إدخال وسائل إنتاج جديدة مثل الزراعة والتعدين قد أحدث انقلابا في المنطقة من حيث تطور اقتصاديات الكيانات السياسية من جهة ، وظهور مدن وتجمعات سكنية.
3- تمكن قبائل البانتو من تجميع الكيانات السياسية الصغيرة إلى مملكة ذات نظام سياسي وسوسيو–اقتصادي مركزي.
4- إن النظام السياسي التي تبنته مملكة الكونغو قد مكن مختلف العشائر والقبائل من تحقيق وحدة متماسكة تنعم بالأمن والآمان. وكنتيجة لذلك ، يمكننا القول أن هذا الحدث قد ساهم في تكوين أمة قوية من الناحية السياسية والسوسيو–اقتصادية ، بل

[112] John K. Thornton . “The kingdom of Kongo”. 1390-1678. Cahiers d’études Africaines. op.cit. p 337.

أن هذه الوحدة في ظل وجود حكم مركزي قوي قد مكنها من العيش في كنف الحرية والرفاهية.

5- تمكن مجموعات إثنية من تحقيق وحدة سياسية إثنية **Ethnic political Unity** مكنتها من أن تصبح مملكة قوية قائمة بحد ذاتها.

بالعودة إلى المصادر التي تناولت حيثيات تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء نستنتج أن الوحدات السياسية في إفريقيا جنوب الصحراء التي بدأت على شكل قرى لم تلبث أن تطورت لتصبح ممالك وإمبراطوريات قائمة بحد ذاتها ساهمت مساهمة فعالة في بناء الصرح الحضاري العالمي.

Bibliography

1 – Books:

1 - Balandier. G. La vie quotidienne au royaume du Kongo , du XVIéme au XVIIIéme siècle . Hachette, Paris , 1965 .

2 - Batsîkama ba Mampuya ma Ndâwla. Raphaël . L'ancien royaume du Congo et les Bakongo, éd. L'Harmattan, Paris, 1999.

3 - Batsîkama ba Mampuya ma Ndâwla. Raphaël.Voici les Jagas. ONRD , Kinshasa, 1971.

4 - Cuvelier. J. Documents sur une mission Française au Kakongo. 1766-1776. IRCB Bruxelles 1953.

5 - Frommont. C. The Art of Conversion: Christian Visual Culture in the Kingdom of Kongo. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2014.

6 - Gondola. D. The History of Congo. Greenwood Press , London, 2002.

7 - Hilton, A. The Kingdom of Kongo. Clarendon Press, Oxford, 1985.

8 - Mbemba-Dya-Bô-Benazo-Mbanzulu , Rudy in « Le procès de Kimpa Vita la Jeanne d'Arc congolaise » L'Harmattan , 2002.

9 - Ndaywelé Nziem. I . Histoire générale du Congo , de l'héritage ancien à la république démocratique . De Boeck et Larcier , Bruxelles , 1998.

10 - Oliver , R and Atmore , A. Medieval Africa. 1250-1800. Cambridge University Press , Cambridge , 2001.

11 - Pigafetta , Filipo. A report of the Kingdom of Congo and of the surrounding countries. Traduit par Margarite Hutchinson. Gilbert and Rivington Printers , London , 1881.

12 - Randles. W.G.L. L'ancien royaume du Congo, des origines à la fin du XIXe siècle, Paris-La Haye, Mouton et Co., 1968.

13 - Vansina. J. Kingdoms of the Savanna, Madison, WI, University of Wisconsin Press, 1966.

Journal articles:

1 - Anonyme, Histoire du royaume du Congo, 1624, traduit et éd. par François Bontick dans **Études d'Histoire africaine**, IV, 1972.

2 - Cornevin. R et M « Histoire de l'Afrique **» in revue Française d'histoire d'outre-mer** , Vol 50 , No 178 .

4 - Mac Gaffey. W. " Oral tradition in Central Africa" **International Journal of African Historical Studies .** vol III.
5 - Margarida. Alfredo « L'ancien Royaume du Congo » **Annales économies, sociétés et civilisations.** Vol 25, numéro 6, 1970. 1719-1720.
6 - Rollet . C." W.G.L. Randles. L'ancien royaume du Kongo , des origines à la fin du XIXéme siecle » . In **Annales de demographie historique.Migrations, 1970 .**
7 - Thornton.John K. *"The Origins and Early History of the Kingdom of Kongo**,"** ***International Journal of African Historical Studies*** 34/1 (2001.
8 - Thornton . John K. "The kingdom of Kongo. 1390-1678." **Cahiers d'études Africaines.** Vol 22 , No 87 , 1982 .
9 - Vansina . J. Notes sur les origines du royaume du Kongo**. Journal of African History ,** 4, 1963, pp 33-38.
10 - Encyclopaedia Britannica. 2010.
11 - Encyclopedia of World Biography on Nzinga Nkuwu.

.

6 – دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا .

مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ السودان الغربي أو كما يحلو للبعض تسميته بغرب إفريقيا في نهاية القرون الوسطى وبداية العصر الحديث ، يلاحظ أن الدين الإسلامي قد استطاع في فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الأفارقة الذين تركوا الوثنية واعتنقوا الإسلام.

وكان من نتائج انتشار الحضارة العربية الإسلامية ،انبثاق ممالك إسلامية لا سيما مملكتي مالي و سنغاي، وبروز دولة الفولاني بزعامة عثمان بن فودي (1)في شمال نيجيريا ودولة ساموري توري في شمال ساحل العاج.

و الجدير بالذكر أن هذه الممالك و الدول قد اتخذت من النظم العربية الإسلامية نموذجا في الحكم، ومن ثمة ازدهار الحياة العلمية و تكثيف التبادل العلمي و الثقافي بين غرب إفريقيا و العالم الإسلامي ،الأمر الذي ساعد على انبثاق حضارة واضحة المعالم في هذا الجزء من القارة السمراء.

ونظرا لتقهقر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ابتداء من نهاية القرن السادس عشر ميلادي بسبب عوامل سياسية وسوسيو–اقتصادية لها علاقة مباشرة بالحروب الطاحنة بين الأفارقة أنفسهم و التهديدات الخارجية التي تجلت في حملة السلطان المغربي المنصور الذهبي على غرب إفريقيا، وظهور البرتغاليين على مسرح الأحداث بفتح مراكز تجارية على طول الشريط الساحلي المطل على المحيط الأطلسي وتشجيع تجارة الرقيق، إلا أن بعض الزعماء الأفارقة أرادوا إحياء الممالك الإفريقية في غرب إفريقيا بالاعتماد على ميكانيزمات سياسية وثقافية ودينية تتجلى في مواصلة رسالة نشر الحضارة العربية الإسلامية و القضاء على استفحال الوثنية في أجزاء من غرب إفريقيا لا سيما نيجيريا . ولعل أهم حركة جهادية في بداية القرن التاسع عشر هي تلك التي قادها عثمان بن الفودي الذي وحد شمال

نيجيريا تحت رايته وأرسى دعائم دولة اعتمدت على النظم العربية الإسلامية في مسألة الحكم، وعلى هذا الأساس، ارتأينا في بحثنا هذا تسليط الأضواء على حقبة زمنية برز من خلالها زعماء أفارقة قرروا مواصلة تبليغ الرسالة في غرب إفريقيان وكان من أبرزهم الشيخ عثمان بن الفودي.

وأيا ما كان الأمر ،فسنحاول من خلال هذا المقال التطرق إلى تطور الحركة العلمية في غرب إفريقيا مع إبراز الدور الذي لعبته الحضارة العربية الإسلامية في عصرنة المجتمع الإفريقي لاسيما في فترة إحياء الممالك الإسلامية في بداية القرن التاسع عشر و الدور الذي لعبه عثمان بن فودي في نشر الإسلام في بعض المناطق النيجيرية التي تمسكت بوثنيتها. وعلى هذا الأساس ، فإن تبني الشيخ عثمان بن فودي للنظم العربية الإسلامية في مسألة تسيير دولته في ما يعرف بشمال نيجيريا، كان يهدف إلى العمل على تطوير المجتمع من خلال بعث حركة علمية تواكب التحولات التي كان يشهدها السودان الغربي باستفحال تجارة الرقيق وظهور الخطر البريطاني الذي أضحى يهدد غرب إفريقيا بصفة عامة ونيجيريا بصفة خاصة.

ومن هذا المنطلق، سنحلل تحليلا دقيقا وعلميا دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا مع التركيز على فترة إحياء الممالك الإسلامية ، وعليه ولإعطاء هذا الموضوع حقه تتبادر إلى الذهن مجموعة من التساؤلات نراها ضرورية لتفسير الأحداث و استخلاص النتائج. **فما هو الدور الذي لعبته الحضارة الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا ؟ وهل ساهمت حركة الكتابة و التأليف في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا؟و ما هي الميكانيزمات التي اعتمدها الشيخ عثمان بن فودي في بعث الحركة العلمية في دولة الفولاني؟ وما هي أثار هذه الحركة على مستقبل غرب إفريقيا؟**

وانطلاقا من هذه التساؤلات، سنحاول في هذه الدراسة استخلاص النتائج، وذلك قدر المستطاع إلى إزالة الكثير من الغموض الذي يكتنف تاريخ إفريقيا بشكل عام وغربها بشكل خاص.

1 -الحركة العلمية في غرب إفريقيا:

-1-1 حركة الكتابة و التأليف :

ازدهرت الحركة العلمية واشتهرت منطقة إفريقيا جنوب الصحراء بكثرة علمائها وفقهائها وأئمتها، واحتفظت بمكانتها العلمية والثقافية –حتى في أوقات ضعفها السياسي– كمراكز كبرى للثقافة والعلم.

و إضافة لدراسة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية ، ازدهرت أيضا العلوم التي شملت جميع أمور الحياة كمناهج النحو والعلوم الفلسفية والرياضيات والمنطق وعلم النفس والهندسة والفلك والأدب والطب والتاريخ والرحلات وفن الكتابة (الخط) والتراجم.

تأسست في غرب إفريقيا مراكز إشعاع ثقافي إسلامي كبيرة ، ومن أبرز المدن التي ارتبط اسمها بالعلم نجد تمبكت وجاو وجنى وصنعى و صكوتو وحمد الله، حيث استقدم حكامها وشيوخها كأحمدو لوبو و الشيخ عثمان بن فودي و محمد بيلو العلماء من شتى الأنحاء ووفروا لهم كل أسباب العيش طلبا للعلم.

وكان العلماء يحضرون كتجار و حاملي علم فنشروا علمهم الغزير وثقافتهم الإسلامية الواسعة فازدهرت الحياة الثقافية في كافة المنطقة.

عرفت مدينة تمبكت (2)حركة علمية زاخرة واشتهرت بكثرة العلماء والفقهاء والأئمة الذين كانوا يعاملون معاملة كلها احترام وتقدير وتعظيم (3) ،فازدهرت الحركة العلمية وأقبل

الناس على اقتناء الكتب رغم ارتفاع تكاليفها خصوصا إذا ما علمنا أن هذه الكتب تتناول كل فروع العلوم الإسلامية(4).

وفي هذا السياق ، تطورت حركة التعليم في غرب إفريقيا بفضل المدارس التي أنشئت في تمبكتو وسوكوتو وتوافد عليها الطلاب و الأساتذة ن كما شهدت لأول مرة اتساع التعليم الجامعي ، ومن ثمة ساهم الأساتذة الوافدين من بلدان المغرب العربي في تنشيط التعليم وتعميقه، وشرع هؤلاء العلماء في الإنتاج ، فكتبوا شروحا لعدد من المؤلفات الهامة التي كتبت خارج السودان(5).

وما يمكن قوله في هذا المجال ، أن العلماء قد عكفوا على تعليم اللغة العربية فتعلموها لغة و أدبا، و ألفوا بها كتبا كثيرة في شتى الفنون، وأنتج العلماء مؤلفات كثيرة كما ألفوا كتبا و رسائل عالجوا فيها الكثير من المشكلات الدينية و الاجتماعية و السياسية، مثل مؤلفات الشيخ محمد بلو ككتاب الطب النبوي، و القول السنا، و كتاب محمود تكر قرى الأحبة في بيان سر الأسماء.

لقد حوت جميع هذه الكتب معلومات وافية في الطب و طرق علاج بعض الأمراض، وكان أيضا لبعض العلماء ميول أدبية ساعدتهم على التأليف في مجال الشعر النثر.

ويذكر أن عددا من معاهد العلم التي نشأت في كنف الخلافة الصكتية و انتشرت في معظم ولايات الدولة و أجزائها المترامية، و أول هذه المعاهد و أهمها معهد صكت أو معهد الشيخ عثمان الذي كان من أكبر المعاهد الدينية، و الذي تفرع منه عدة فروع لا في صكت وحدها بل في جميع أنحاء الدولة، إلا أن نشاط هذا المعهد بدأ يتضاءل بعد وفاة محمد بلو عام 1837، رغم الجهود الكبيرة التي بذلها ابنه علي الكبير عام 1842.

كما أنشئت معاهد أخرى في صكت نفسها أهمها معهد غداد بن ليم الذي أسس في عهد الشيخ عثمان و كان من أكثر المعاهد نشاطا في نشر العلم، و قد كان مؤسس هذا

المعهد عالما متفننا و كرس جهده في تطوير هذا المعهد، و بعد وفاته خلفه ابنه عبد القادر في التدريس في هذا المعهد.

و قد ظهر في هذه الفترة عددا من المعاهد التي كانت تدل على الرقي الفكري مثل معهد الشيخ عبد الله بن فودي في غوند، بالإضافة إلى معهد الحنبليين في كاتيسنا، و معهد جوما في زاريا، و معهد حسن غرن في أداماوا، و معهد المعلم دندو في بيدا.

ساعدت هذه الأجواء العلميّة والدينيّة على إيجاد لفيفٍ من العلماء والفقهاء في هذه البلاد الذين أسهموا في نشر الإسلام وبثّ ثقافته، ومن بين هؤلاء العلماء الذين برزوا في مراحل مختلفة من الزمن و الذين كان لهم الدور الكبير في ميدان العلم والتأليف نذكر محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي ترك العديد من المؤلفات التي كان لها بالغ الأثر في الحياة العلمية والثقافية في غرب إفريقيا، نذكر منها البدر المنير في علم التفسير، **مصباح الأرواح في أصول الفلاح، شرح مختصر الخليل، مفتاح النظر في علم الحديث، شرح جمل الخونجي في المنطق**، ففي نفس السياق قام المغيلي بمراسلة السيوطي وانتصر لأراء أرسطو في المنطق، فتأثر بآرائه الكثير من علماء إفريقيا وساروا على منهجه ونشروا مؤلفاته التي تدرس إلى اليوم(6).

كما نذكر من علماء المنطقة، أحمد بابا التنبكتي(7) ، كما شهد الغرب الإفريقي عددا لبأس به من العلماء لازالت آثارهم العلمية إلى اليوم مثل:

1- القاضي محمّد بن أحمد التّادخي من علماء كسينا، لقي المغيلي وزكريا الأنصاري وعبد الحق السنباطي واللقاني وغيرهم، توفي سنة (930هـ).

2- الشّيخ عبد الله ثقة الفلاني الكشناوي: رحل إلى أَغْدز، وفان، وتكده في طلب العلم، ثمّ رجع إلى كسينا، وتصدّى للتدريس بها، له منظومة في المواعظ والحكم في نحو ألف

وخمسمائة بيت أسماها (عَطيّة الْمُعطي)، ويقال: إنّه أوّل مَن حفظ الكتب السنة في هذه البلاد.

3- الشيخ العاقب بن عبد الله المسوفي، الذي تتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، له دور بارز في الحياة العلمية في غرب إفريقيا وذلك لما تميز به من إنتاج فكري تجاوز حدود الغرب الإفريقي، ومن آثاره العلمية، أجوبة الفقير من أسئلة الأمير، وهي مجموعة فتاوى استفتاه فيها الأسكيا محمد الكبير، وكذلك تعليق على قول الخليل، وقد ذكر الشيخ أحمد بابا التمبكتي كل مؤلفاته في كتابه نيل الابتهاج لتطوير الديباج(8).

4 – الشّيخ جبريل بن عمر: شيَخ شيوخ زمانه وهو الرّجل الذي أثّر في الشّيخ عبد الله بن فودي، وكان له دور وجهد بارز في محاربة البدع والفساد في بلاد (الهوسا). يقول عنه الفودي في كتابه "**إيداع النسوخ فيما أخذت عن الشيوخ**" :"وله شهريه في العلماء شرقا وغربا تغني عن ذكر شمائله، أخذت عنه كتب أصول الفقه، وجمع الجوامع وشروطها، وقرأت عليه بعض تواليفه"(9) . ثم جاء الشيخ عثمان بن فودي الذي يعتبر امتدادا طبيعيا لهذه الحركة العلمية الدينية، التي تعتبر في نظره السلاح الحقيقي في وجه النهوض من الخروج من الجهل من جهة و التصدي للغزاة الأوروبيين من جهة أخرى.

2-الحركة العلمية في دولة الفولاني ودور الشيخ عثمان بن فودي فيها:

تطورت الثقافة العربية الإسلامية و ازدهرت في زمان الشيخ عثمان بن فودي و صار الشيخ إماما للمسلمين ومجددا لأمور الدين فظهرت مجموعة كبيرة من المؤلفات للشيخ و أتباعه لتوجيه الرعية و حل مشاكلها و إرشادها في أمور الدين، كتبت هذه المؤلفات بالعربية و لغة الفلاني و لغة الهوسا خدمة للمسلمين.

و قد أورد البروفيسور ميري لاست في كتابه خلافة سكتو، أورد 88 كتابا للشيخ عثمان دان فودي في مختلف العلوم الشرعية و العربية و قضايا المجتمع، ثم 98 كتابا

للأمير محمد بيلو(10)، بن عثمان دان فودي الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه الشيخ عثمان بن فودي، و مؤلفات أخيه عبد الله دان فودي التي بلغت 77 كتابا و قد تزيد كثيرا عن هذا العدد (كان يلقب بعربي السودان).

كانت كتبه بلغة عربية مبينة، تضاهي لغة أعظم الكتاب شعرا و نثرا و نحوا و صرفا و عروضا و فقها و حديثا و في التوحيد، و خير دليل على هذا الإنتاج الغزير لهؤلاء العلماء و غيرهم في ميدان الثقافة العربية الإسلامية، الأعداد الكبيرة من المخطوطات التي جمعها المرحوم الأستاذ بشير عثمان من القرى و المدن و قد أودعها دار الوثائق بسكتو بعد أن نظمها و جعل لها نظم فهرست حديثة طبقا لما هو موجود في أكبر المكتبات و دور الوثائق في العالم، و لكن يلاحظ بعد سقوط الدولة السكتية بدخول المستعمر أصاب الثقافة العربية الإسلامية ضعف شديد و انهيار نتيجة للحرب المنظمة التي شنها الاستعمار ضدها، و ذلك بغرض فرض لغته بالقوة، و كتابة لغة الهوسا بالحرف اللاتيني بعد أن كانت مكتوبة بالحرف العربي.

ثم تحول التعامل في دواوين الدولة إلى اللغة الانجليزية، و حصرت العلوم الإسلامية في نطاق ضيق، و قد استمر هذا الوضع في نيجيريا حتى الاستقلال.

و يعتبر الشيخ عثمان دان فودي أن أهم طرق الإصلاح تعتمد على ضرورة إبلاغ دعوته لجميع الناس، وتعتبر الكتابة أهم الطرق التي تحقق هذا الهدف لذلك لم يدخر الشيخ عثمان جهدا في التأليف وباللغتين العربية و الفولانية و غيرهما مما يستطيع إليها سبيلا.

فقد بلغت مؤلفات الشيخ عثمان ما يفوق الألف بين الكتب والمقالات في مختلف المجالات السياسية، الاجتماعية والثقافية خلال فترة دامت الأربعين سنة حسب ما ذكره ابنه محمد بللو في كتابه "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور"(11).

كما يذكر بللو أن مؤلفات والده يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أقسام :

أ- **مؤلفاته خلال الفترة بين 1774 إلى 1804**، والتي عالجت قضايا الإيمان و الكفر في الغالب، وإحياء السنة النبوية، ومحاربة البدع، وحقوق المرأة المسلمة، وحملت مؤلفاته حول هذه القضايا العناوين التالية:

* إحياء السنة وإخماد البدعة

* بيان البدعة الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية

* تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس من أجل تعليم النساء الفرائض الدينية

ب- **مؤلفاته خلال الفترة من1804-1810**: وتناولت أعماله في هذه المرحلة موضوعات ومسائل فكرية عقائدية مثل دواعي الهجرة و الجهاد، ظهور المهدي المنتظر، مبادئ العدالة الاجتماعية .....ومن تلك الكتب:

* بيان وجوب الهجرة

* النبأ الهادي إلى أخبار الإمام المهدي

* أصول العدل لأوليات الأمور وأهل الفضل

ج-مؤلفات المرحلة بين1810-1817:التي عالج من خلالها الأصول الفكرية للمؤسسات الإسلامية التي تقوم عليها الدولة المبنية على قواعد الشريعة في ضوء القرآن و السنة وممارسات الصحابة، كما بررت هذه المؤلفات قيام الجهاد في تلك المنطقة من إفريقيا و الأهداف التي يرمي إليها و أهم تلك المؤلفات:

* كتاب الفرق

* نجم الإخوان

* سرج الإخوان

* نصيحة أهل الزمان (12)

ومما يمكن ملاحظته من خلال فترات وعناوين هذه الكتب أن الشيخ عثمان أراد أن يتبع من خلالها منهج القرآن الكريم في النزول و سيرة النبي الكريم في بناء دولته، حيث كان هدف القرآن في أول الأمر هو تبيان الفرق بين الإيمان والكفر خاصة في السور المكية، ثم أن محمد عليه الصلاة والسلام بدأ بناء دولته بالهجرة ثم الدعوة إلى المؤاخاة و تبيان أحكام الدين، كما أرسل عدد من الرسل إلى الحكام والملوك لشرح الرسالة، وهو نفس الشيء الذي قام به الشيخ عندما أرسل عدد من الرسل لمختلف الأقاليم الغربية في إفريقيا، وبعد ذلك جاء الأمر بالجهاد في سبيل إرساء قواعد الدين ومحاربة الشرك، إقامة الدولة الإسلامية.

3- الحركة الشعرية:

لم يتخل الشعر عن مكانته في منطقة غرب إفريقيا، بل لعب نفس الدور الذي لعبه الشعر في الجاهلية وأثناء دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وكذا المراحل المختلفة للدولة الإسلامية، فلعب الشعر دور الداعي للجهاد، المؤيد للدعوة و الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، وكان علماء المنطقة من السباقين لاستعمال الشعر في مختلف مجالات الحياة الدينية، الثقافية و السياسية منها لما له من وقع في نفسية الفرد الإفريقي، وكان نظم الشعر يسير بنفس الطريقة التي كان ينظم بها وقت الجاهلية.

وكانت القصيدة تبدأ بالوقوف على الأطلال ثم يصف مراحل الحياة، لينتقل بعد ذلك للزهد ثم يخلص إلى مدح ممدوحه.

و خير مثال لذلك شعر الأمير محمد البخاري بن عثمان دان فودي يمدح عمه الشيخ عبد الله دان فودي قائلا:

أصحوت أم هاجت هواك منازل

دار عهدت بها الحلول و كل من

و لقد وقفت برسمها مستخيرا

لله درك هل وقوفك نافع

فده الديار و ذكر أخدان الهوى

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الزهد قائل:

و أسلك طريق أولي الهداية و اغتنم

و أزهد عن الدنيا فإن نعيمها

و أبغ السيادة بالعلوم فما استوى

صرف بقايا العمر في تحصيلها

و اركب جواد المجد فيه فما استوى

و تنحى عن أهل الدعاة و كل من

و أصحب أولي العزم الهداة فإنهم

ثم ينتقل الشاعر إلى ممدوحه قائلا:

لقد حباك الدهر شيخا ماله

أعني إمام العصر عبد الله من

شيخ العلوم خديمها تباعها

علم الهدى سعد الزمان عماده

ذو شدة في دينه متواضع

علامة القرآن حاوي السبق في علم

ويعتبر المدح من أبرز أنواع الشعر، لما له رواج كبير و اهتمام بالغ مثل مدح الرسول، لأن زعماء الدولة كان همهم الأول إعلاء شأن الدين، و إظهار مبادئه العظيمة بين الناس و تغيير سلوك المجتمع إلى التعاليم الإسلامية التي تسمو بالبشرية و تنفيها.

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء كانوا من مختلف طبقات المتعلمين، و هم في مواقع الدولة المختلفة مثل الوعاظ والقضاة و الوزراء و قادة الجيش و المدرسين و أئمة المساجد و رجال المهن، بدون عناء و هو تغيير ظاهر في كل أنحاء إفريقيا التي وطأتها قدم الإسلام حتى وسط الدول ذات الأقليات المسلمة، و فقط تطرق لغرب إفريقيا كنموذج.

وكان شعراء المدح يختلفون عن الشعراء العرب في الشرق الذين يمدحون الأمراء و الخلفاء للتكسب بالشعراء، أما شعراء سكتو فإن مكانتهم الاجتماعية لا تسمح لهم بذلك لأن منهم الوزراء و كبار العلماء و رجال الدولة.

وما وصل إلينا من شعر المدح في تلك الفترة قليل و هو ينحصر في الآتي:

1. مدح الرسول صلى الله عليه و سلم.
2. مدح الأمراء و الوزراء.

3. مدح الأولياء.

4. مدح قادة الجيش الذين يحققون الانتصارات للإسلام.

و أيا ما كان الأمر، فإن الغرض من المدح هو إظهار ما يتحلى به الممدوح من الصفات العظيمة و المحامد و المكارم ليتأثر بذلك الآخرون، و لا يمدحون للتكسب كما أشرنا إلى ذلك سابقا مثل ما كان يفعل المتنبي و الحطيئة و الفرزدق و جرير و بشار و غيرهم، و قد وضع مؤرخو الأدب الشعراء النيجريين في تلك الفترة في ثلاث مجموعات.

المجموعة الأولى التي وصلت إلينا أشعارها هي:

1. الشيخ عثمان دان فودي.
2. الشيخ عبد الله دان فودي.
3. الشيخ سلطان بيلو بن عثمان دان فودي.
4. السيدة أسماء بنت عثمان دان فودي.
5. السيدة مريم بنت عثمان دان فودي.
6. الشيخ عبد القادر بن المصطفى.

هذه المجموعة هي صاحبة الريادة في الأدب و الشعر في دولة صكة(13).

4-الدور الثقافي للمحاضر:

لا يمكن الحديث عن النشاط الثقافي في منطقة ما دون الحديث عن المحاضر التي تعتبر الرافد الأساسي للمنطقة ، وإذا تحدثنا في السابق عن الدور الثقافي و العلمي من خلال دول مستقلة ذاتيا نوعا ما ، فإننا سنحاول في هذا الباب من المبحث أن نتطرق لنشاط المحاضر في هذا المجال في موريتانيا التي كانت تحت نير المستعمر الفرنسي، ومن خلال ما سيأتي في البحث نلاحظ ذلك الدور الكبير الذي لعبته المحاضر في موريتانيا في

سبيل نشر الدين الإسلامي و الحفاظ عليه، وكذلك تعليم اللغة العربية و باقي الميادين المعرفية ومن بين أهم هذه المحاضر نذكر محضرة (أو حضرة) الشيخ محمد فاضل في منطقة الحوض، مدرسة الشيخ ماء العينين في إدرار ومنطقة شمال موريتانيا ومحضرة الشيخ سعد أبية وكذلك محضرة الشيخ سيديا ياب في منطقة الجنوب والجنوب الغربي الموريتاني وكذلك محضرة الشيخ التراد بن العباس في منطقة الحوض الشرقي وقد شكلت المحاضر التي أقامها أقطاب القادرية الأوعية التي يتلقى فيها أبناء الطريقة خاصة والشعب الموريتاني عامة علومهم ومعارفهم.

ولقد حاول الشيوخ بفضل نشاطهم المتواصل أن يؤسسوا مجموعة كبيرة من المحاضر في كل أنحاء التراب الموريتاني، وأن يجمعوا في هذه المحاضر مجموعة من العلماء ذوي الاختصاصات العلمية المتعددة. و كان حضورها فعالا في الإنتاج الثقافي في البلاد خاصة في القرن الـ 19 فكان أشياخها فقهاء بارزون وأصحاب محاضر كبيرة كما كان إنتاجها الفكري والفقهي والأدبي عم البلاد سواء عن طريق مؤلفاتها أو عن طريق محاضرهم الكثيرة الانتشار(14).

ومن أهم الأعلام الذين بذلوا جهودا مضنية في سبيل العلم نذكر الشيخ محمد فاضل و نظرا لغزارته العلمية وسعة ثقافته، فقد استطاع أن يؤسس لعطاء ثقافي و علمي من خلال تشكيل محضرة الشيخ محمد فاضل ومحاضر أبنائه من بعده التي بقيت تعمل بتوجيهاته(15). وقد عمل على نشر علمه لباقي مناطق موريتانيا، فقد أرسل أبنائه الثلاثة في كافة أنحاء موريتانيا وحتى خارجها، ليعلموا الناس دينهم ابتغاء الدار الآخرة..

وقد كان للشيخ محمد فاضل مؤلفات قيمة ، وقد تعددت المحاضر بعد وفاة الشيخ محمد فاضل بتعدد بنيه وأحفاده وإن تفاوتت بشكل ما بين أحجامها وعطاءاتها، ولعل من أهم هذه المحاضر المتأخرة زمنيا تلك التي أسسها الشيخ التراد بن العباس بعد استقراره في منطقة

اكوينيت في الفترة (1933/1945)(16) وتخرج منها علماء ما يزال بعضهم حيا متشبعًا بآراء المدرسة التزادية.

ازدهرت هذه المؤسسات وازدهر معها العطاء الثقافي في موريتانيا حتى ظهر من بين أهلها فطاحله علماء وأدباء لا يقلون شأنا عن مشايخ التنوير في الشرق العربي(17) . وقدم هؤلاء العلماء مجموعة كبيرة من التأليف والمصنفات التي تنم عن سعة إطلاع أصحابها. كما كانت هذه المؤلفات هي الأوعية العلمية التي اضطلعت برسالة التعليم في موريتانيا، مما ساعد هذه المحاضر على وضع الأسس العلمية التي اعتمدت عليها البلاد كما عرفت ازدهارا عظيما في عهد الشيخ سيديا الكبير وابنه محمد الذي ساهم مساهمة فعالة في جعلها تستمر في بث إشعاعها الثقافي والتعليمي بوصفها واحدة من أشهر محاضر القادرية في بلاد شنقيط، الأمر الذي مكنه من إتباع طريقة حديثة في التدريس بمحضرته مثل إلقاء الدروس حسب جدول زمني محدد ومرسوم وجعل الدروس تشمل جوانب مختلفة من العلوم كتدريس المنطق ، إلى جانب الأدب والفقه والمعارف الشرعية الأخرى.

وفي هذا السياق ، كان يعقد اجتماعات دورية مع الأستاذة والوجهاء ليتدارس معهم المشاكل المطروحة وأخذ يجلب الكتب النادرة من المغرب والسنغال مما جعل مكتبة المحضرة تأخذ نفسا جديدا مع قائمة الكتب النادرة والنفيسة التي جلبها لها ووفرت لطلاب محضرته فرصة الاطلاع على بعض نفائس الكتب التي سمعوا بها إلا أنه لم يكن بمقدورهم الحصول عليها لغلائها وبعدهم عن أماكن توفرها، وقد استعاد من اقتنائه لتلك الكتب ليس فقط بما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدب بل أنه تمكن من خلالها من الإطلاع على أحوال العالم في ذلك الوقت السياسية والاجتماعية والثقافية.

أما فيما يخص محضرة الشيخ ماء العينين ، فإنه بعد أن قضى المرحلة الأولى في تحصيل العلوم وتلقى التربية الروحية على يد والده الذي أذن له شيخه ووالده بالرحيل إلى منطقة جديدة بعيدا عن منطقة والده ، دخل الشيخ في المرحلة الثانية ، وهي مرحلة العطاء

العلمي والروحي وتمثل مرحلة العطاء العلمي وتظهر في كثرة تأليفه العلمية وما تتلمذ عليه من الجموع الغفيرة من البشر بمدرسة بالسمارة حيث أصبحت كعبة للطلاب وسوق العلم والأدب رائجة حتى فاق عدد تلاميذ عشرة آلاف.

وكان لاسمارة مميزات خاصة في قلب الصحراء الغربية حيث كانت ربطا روحيا وفكريا تنشر فيه المعارف الدينية واللغوية ومركزا للجهاد ونظرا لما بمحضرة الشيخ ماء العينين من مكانة عظيمة في موريتانيا أطلق عليها اسم مدرسة وانطلاقا من حرص الشيخ على الهوية العربية والدين الإسلامي باعتباره الوحدة العقائدية التي يلتف حولها المسلمون ، فجر الشيخ فكرة الجهاد، ومثلت اسمارة الوجه الأكثر نصاعة وأوضح وأكثر أهمية من حيث أنها خرجت مريديها على فكرة كراهية الاستعمار الأجنبي وكما كانت اسمارة جامعة علمية ومكتبة كان لها إشعاعها الرائدة في هذه الصحراء المترامية الأطراف ورغم وقوعها تحت قبضة الاستعمار سنة 1910 وفقدها بذلك الكثير من ذخائرها العلمية وكنوزها الدينية غير أن ذلك لم يفقدها قوتها الثقافية وإشعاعها الديني بل أصبحت تشع به على الكثير من المناطق الشمالية التي استقطبت الكثير من الزعماء في رفع الإشعاع الثقافي ضد الغزو الفكري الاستعماري.

خاتمة:

بالرجوع إلى ما سبق ، يخلص الدارس إلى الاستنتاجات التالية:

1-شهدت منطقة غرب إفريقيا تطورا شاملا تميز بتبني أهلها أفكارا جديدة ونشاطات لم يعرفوها من قبل ، فاعتنق غالبيتهم الدين الإصلاحي و أجاد علماؤها اللغة العربية وأسهموا في الكتابة و الإبداع ،كما تراجعت التقاليد الوثنية وتقلص محيط الاستسلام لمظاهر الطبيعة.

2-انبثقت نظم جديدة في الحكم مستوحاه من النظم العربية الإسلامية ، كما حج بعض ملوك غرب إفريقيا وجلبوا معهم الكثير من التقاليد في الاستشارة و الوزارة و البلاط.

3-يبرز دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا في إسهامات العلماء و الفقهاء في تطوير العملية التعليمية ، وكذا تأليف الكتب و تشييد المساجد وبناء المدارس وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن هؤلاء العلماء كان لهم دورا رائجا في نشر العلم و الثقافة العربية الإسلامية، إضافة إلى تقلدهم مناصب في الدولة أهمها المناصب القضائية في عهد ملوك مالي ن سنغاي وشمال نيجيريا في فترة حكم عثمان بن فودي.

4-انعكست الآثار الإيجابية للحياة العلمية على الجانب الاقتصادي بصفة عامة وعلى التجارة بصفة خاصة ، خصوصا إذا علمنا أن النشاط التجاري ساهم بقدر كبير في ازدهار الحواضر و النشاط العلمي . وعليه ، فالرخاء الاقتصادي كان وراء تقهقر ظاهرة الفقر، وساعد على الإنفاق في بناء المساجد و المعاهد.

5-إن غرب إفريقيا كانت مركز إشعاع أفرزت حضارة هي امتداد للحضارة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا بحيث ساهمت في نشر الإسلام و التعريف به في باقي بلدان القارة الإفريقية، ولعل الحواضر و المراكز العلمية و المدن التاريخية شاهدة على ذلك.

6-كانت شعوب غرب إفريقيا -بفضل الروابط و العلاقة مع شمال الصحراء -تبني حضارة تضاهي بها الحضارات المجاورة بفضل العلوم و المراكز العلمية التي كانت منتشرة، حتى أن تجارة الكتب كانت رائجة أكثر من تجارة الذهب.

7-بالرغم من دخول منطقة غرب إفريقيا مرحلة الانحطاط خلال القرنين17/18م إلا أن نهاية القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر شهدت حركة إحياء العلم قام بها علماء

وزعماء في العديد من مناطق غرب إفريقيا لا سيما تلك التي ظلت على وثنيتها،وكان من أبرزهم عثمان بن فودي(17).

8- تشاء الأقدار أن تتوقف مسيرة المجتمعات الإفريقية في مواصلة بناء كياناتها الوطنية شبيهة بتلك التي تبنتها أوروبا بعد الثورة الفرنسية سنة1789 م بسبب رواج تجارة الرقيق و التوغل الأوروبي في إفريقيا بحيث ساهم هذان العاملان في اختفاء هذه الإمبراطوريات و الممالك ،إضافة إلى الحروب الطاحنة فيما بينها و التي كان يغذيها أعوان الإمبريالية من جهة، و الغزو الأوروبي من جهة أخرى. وعليه ن يذكر الرئيس الكيني الأسبق جومو كينيتا في مؤلفاته: «**أن الأنظمة السياسية الإفريقية كانت أكثر ديمقراطية من النظم السياسية الأوروبية قبل التواجد الأوروبي في إفريقيا(18)**"

الهوامش:

-1 هو عثمان بن محمد بن صالح بن هارون بن محمد بن رجب بن فودي، وكلمة فودي تعني الفقيه في لغة الهوسا وهم سكان المناطق الشمالية في نيجيريا الحالية. وقد ولد الشيخ عثمان في سوكوتو سنة1754م وتنحدر عائلته من قبائل الفولاني الذين هاجروا إلى نيجيريا في السابق قادمين من منطقة أعالي نهر السنغال في جمهورية السنغال الحالية، و كانت عائلة الشيخ عثمان قد توارثت العلم و الثقافة منذ مدة قبل ولادته، وهذا ما أتاح له فرصة التعلم على والده مبادئ علوم العربية أصول افقه وحفظ القرآن الكريم، كما تتلمذ على يد الشيخ جبريل بن عمر الذي يعتبر مكن اكبر علماء السودان الوسط .وتمتد مرحلة العمل على نشر الدعوة من سنة1785 إلى غاية1803م. حيث تكاثر أنصار الشيخ بن فودي بعد استقراره في مدينة سوكوتو التي أسسها وجعلها عاصمة لحركته .تزعم الشيخ عثمان بن فودي حركته الجهادية و انتصر على خصومه أمراء بلاد الهوسا وكون فيها دولته الإسلامية تحت إمارته، وقد استمرت فترة جهاده من سنة1803 على سنة1810 ن تلقب الشيخ عثمان بلقب أمير المؤمنين في دولته الفترة بين1810 غلى1817 حيث وافته المنية. و للشيخ عثمان حاليا في الجامعات النيجيرية وعند الخواص مجموعة كبيرة من الرسائل في مواضيع شتى ومن أهم تلك المواضيع نذكر:

أ–رسالة في أصول الولاية

ب–رسالة في إحياء السنة وبيان البدع

ت–رسالة في الجهاد

للمزيد من التفاصيل أنظر:زبادية، عبد القادر:دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب و المسلمين .ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010،ص78–81

–2تأسست مدينة تمبكت والى القرن الحادي عشر، وقد أسسها الطوارق (إيغمراشن) حينما اتخذوا من مكانها مشتى لهم في حدود دلك التاريخ، ويقال أن اسمها اتخذ من اسم العجوز التي كان الطوارق قد عهدوا إليها بالبقاء في ذلك المكان، حينما يغادرونه في رحلتهم الصيفية، وكانت تحرس لهم بيوتهم ومخازنهم، ثم تحول المكان لسوق ن وفي أيام كنكان موسى ملك مالي (القرن الرابع عشر) بني له فيها قصر ضخم، كما أسس أول مساجدها المسمى (دنقربير)، فبدأت حركة الهجرة للمنطقة وزاد سكانها فأصبحت المدينة تجمع بين التجارة و العلم وقد بلغت مرحلة الأوج في الفترة الممتدة بين 1496و1591 حيث اتخذت المدينة شكل المدن العصرية في نمط هندستها الذي يشبه البناء المغربي–الأندلسي. انظر عبد القادر زبادية :الحضارة العربية و التأثير الحضاري في إفريقيا جنوب الصحراء ، المؤسسة الوطنية

للكتاب، الجزائر،1988،ص61وللمزيد من التفاصيل انظر Robert Cornevin. Histoire del'Afrique,Payot,Paris,p356t ,

-3ومما تجدر الإشارة إليه أن مدينة تمبكت كانت محطة للقوافل التجارية في غرب إفريقيا ن كما كان يقصدها الطلاب ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن مدينة تمبكتو تبوأت مركز الريادة في مسألة انتشار العلم و الثقافة و العمران و التجارة.

للمزيد من التفاصيل أنظر:

Robert Cornevin ,op.cit.p356

-4 البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز،المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب، القاهرة،دار الكتاب الإسلامي، د.ت. ص 287- .288

-5عبد القادر زبادية، الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في غرب إفريقيا الغربية جنوب الصحراء المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر؟،1989،ص 62-63

- 6 الشيخ بوعمران، معجم مشاهير المغاربة الجزائر1995،ص505

-7 يذكر الشيخ أحمد بابا التمبكتي أن مكتبته كانت تضم حوالي ألف وستمائة مجلد وهي أصغر مكتبة في أسرته، ويصف لنا عن الشيخ محمد بن ابي بكر التنبكتي المعروف ببغيع من خلال كتابه نيل الابتهاج حالة العلم في وقته فيذكر:"...أضف إلى ذلك =محبة العلم ومحبة أهله وكان له صبر عظيم مع طلبة العلم كان يعير كتبه النادرة و الثمينة في كل المجالات دون أن يطلب ردها ابتغاء لمرضاة الله وأحيانا ما كان يطلب من الطالب كتابا فيعطيه له دون أن يعرف من هو"، ومن دلائل أهمية العلم في المنطقة هو ما ذكره الوزان أن الكتب و المخطوطات كانت تباع وكانت تجارة رابحة حيث أن ربحها أكثر من ربح السلع التجارية الأخرى.

أنظر، جون هانويك، تراث المخطوطات الإسلامية لتنمبكتو، تر سوزي أباضة، مجلة أفريقية – عربية، مركز البحوث العربية، القاهرة، العدد06 ، 2003

-8مطير سعد غيث أحمد، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي،دار المدار الإسلامي، لبنان،2005،ط1. ،ص273

-9أحمد محمد الكانمي، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا،الزهراء للإعلام، القاهرة،ط1، 1987. ، ص28

– 10هو محمد بيلو بن عثمان بن فودي ، درس على أبيه بالدرجة الأولى ، كما درس أيضا على يد آخرين في بلده. وقد عرف بسعة الاطلاع على علوم عصره وخاصة الفقهية و اللغوية . وفي سنوات الجهاد الذي قام به والده الشيخ عثمان كان بلو بمثابة الساعد الأيمن له، خلف والده في الحكم سنة1817م ودام حكمه واحد وعشرين سنة، كما زار عدد من العلماء و راسلوه منهم أحمد البكاي الكنتي وكذلك الحاج عمر الفوتي الذي كانت له صداقة متينة مع محمد بيلو، باعتباره سلطانا إسلاميا وعالما كبيرا، ومن التصانيف الهامة التي تركها بيلو كتابان هامان هما:

- إنفاق الميسور في بلاد التكرور
- مجموعة الرسائل. أنظر عبد القادر زبادية: دراسة عن أفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب و المسلمين ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،2010. ص86

–11عثمان برايما باري ،جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية،ط1،2000 ، ص119

–12شوقي الجمل، الحضارة الإسلامية العربية في غرب إفريقيا، مجلة المناهل، عدد 7، نوفمبر 1976م، ص .145

–13آدم إبراهيم أحمد، **الثقافة العربية الإسلامية في دولة صكة الإسلامية منشورات جامعة إفريقيا العالمية** المؤتمر الدولي حول الإسلام في إفريقيا،26/27نوفمبر2006،ص347–350

–14محمد الأمين التوسيط في معجم بلاد شنقيط، القاهرة،دت ، ص 75، .76

–15عمر أحمد سعيد:انتشار الإسلام في إفريقيا بين السيف و القلم، القاهرة 2000، ص330

–16إبراهيم علي طرخان، مملكة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرةن1973، ص 148، 149

Smith,S.Atlas de l’Afrique . Edition Autrement, Paris.2005,p7917–

18 – Kenyata , Jomo.Facing Mount Kenya. Présence Africaine, Paris,1960